روايات مصرية للجيب

47

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

الساحر وأنا

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لا بد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم

المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ونحن معها العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

1ـ أرجوك لا تفشل ..

اسمه (زيد) .. وهو عبقرى ..

كيف عرفت أنه عبقرى .. لا تعرف .. لكنها تمنت أن يكون كذلك ، وفى بعض الأحيان نتمنى الشىء إلى درجة أننا لا نقبل ألا يكون حقيقيًا ..

نحيل هو . له تلك الأنامل الدقيقة الطويلة التى اعتدنا أن ننسبها لعازفى الموسيقا والجراحين البارعين .. عصبى بارز العروق توشك تفاحة (آدم) أن تقفز خارج عنقه .. يضع العوينات ويشبه آلافًا من خريجى الهندسة الذين تضع الدراسة عليهم ذلك الخاتم المميز ..

قميص واسع ابتل إبطاه بالعرق وأخرجه خارج السراويل ، فبدا كأنه خيمة تمتلئ بالهواء .. الجيب العلوى تطل منه علبة التبغ الأمريكية إياها .. من حين لآخر يتوهج الهاتف الجوال فيرفعه ليلقى نظرة على شاشته ويطلق سبة ، لكنه لا يرد على أية مكالمة أبدًا .. فقط يعيده لمكانه على المنضدة ويواصل العمل ..

حذاء رياضى خفيف .. سراويل جينز .. ساعد مغطى بالشعر والآخر خال منه .. شىء غريب ، لكن ليس من حق الفتيات ولا الفتية أن

يسألوا أيًا كان عن سبب وجود الشعر على ساعد واختفائه عن ساعد آخر .. هذه من ألغاز الكون التى لن نعرف إجابتها أبدًا ..

اسمه (زيد) .. وهو يعرف ما يفعله ..

* * *

كان اليوم مبهجًا بالنسبة لـ (عبير) ..

إنه إجازة من نادى ألعاب الفيديو .. فرصة ممتازة للخلاص من (مراد) بعض الوقت .. فرصة للاستيقاظ من الفراش فى ساعة متأخرة .. الطفلة نائمة جوارها فهى تصحو فى ساعة متأخرة ، والشمس تتسلل من النافذة لتغمر الفراش بما تكوم عليه من كتب ومجلات ..

أمس ظلت تقرأ حتى الرابعة صباحًا ، وكلما أوشك النوم أن يغلبها قاومت حتى تبقى متيقظة .. من الحرام تضييع ليلة كهذه فى النوم ..

هكذا قرأت الكثير من المجلات .. ومن بينها مجلة تتحدث عن قصة واقعية غريبة بعض الشىء .. وقدرت أن (فانتازيا) لن تفوت الفرصة لاستغلال هذه القصة يومًا ما ..

عندما صحت من نومها أدركت أنها لا تشعر بصداع ، وأن جسدها مستريح تمامًا ..

الأم فى السوق .. أخوها فى المتجر .. لا يوجد ما يضايقها أو يشغلها ..؟

لهذا اتجهت إلى جهاز الكمبيوتر الذى تحاصره الأسلاك موضوعًا فوق تلك المنضدة الفقيرة لكنها متينة كالحصون .. ماذا يمنع من أن ..

لقد اعتادت أن تدخل (فانتازيا) على سبيل الفرار من واقع قاس مرير .. تدخلها وهى مهزومة .. لماذا لا تجرب أن تدخلها وهى .. لن نقول (منتصرة) ولكن نقول (غير مهزومة) ؟ يوم منعش يبدو باسمًا وراحة تامة، وبضع دقائق فى عالم آخر لن تغير الكثير ..

المشكلة الوحيدة أن تصحو الطفلة الآن فترى أمها فى هذا الوضع المريب .. مغمضة العينين وعلى رأسها خوذة تخرج منها عشرات الأسلاك .. هذا مشهد جدير بكوابيس أفلام الخيال العلمى لكنه لا يناسب تلك الصغيرة .

لقد حدث من قبل، لكن الطفلة زحفت إلى حيث كانت (عبير) وتحسست (تنورتها) ثم تسلقتها حتى تمكنت من أن تضع يدها على خد أمها الجالسة .. هنا فتحت (عبير) عينيها لأنها لم تكن قد أتمت الرحلة بعد . الغريب أن هذا أثار رعب الطفلة أكثر لأنه بدا لها كما بدا المسخ لدكتور (فرانكشتاين) لحظة فتح عينيه ..

سرعان ما مر هذا الموقف لكنه ظل يقلق (عبير) ..

ألقت نظرة على الطفلة فأدركت أنها بالفعل نائمة بعمق .. هكذا ضغطت على زر التشغيل وبدأت تعد الخوذة إياها للوضع على رأسها ..

لكن .. الجهاز لا يريد أن يعمل ..

ترى تلك الأرقام التى تعلن بدء التشغيل، لكن بعد هذا تتجمد الصورة ولا يحدث شىء على الإطلاق ..

سقط قلبها فى قدميها ..

تلت البسملة وضغطت على زر الإطفاء ثم أعادت التشغيل ..

لا شىء يحدث ..

كانت تتوقع هذه اللحظة منذ زمن .. كل أجهزة الكمبيوتر تتلف وترى أصحابها يحملونها إلى الخبراء، فلماذا يصير هذا الجهاز استثناء ؟.. لقد تحمل عدة سنوات دون أن يتلف خاصة أنه لا يوجد الآن (شريف) ليعنى به .. لكنها فعلت ما هو مستحيل كى تبقيه حيًا .. لم تستعمله لأى غرض على الإطلاق سوى دخول (فانتازيا) .. لم تشغل عليه أسطوانة .. لم توصله بالإنترنت المزدحمة بالفيروسات النهمة .. لم تفتحه إلا لغرض واحد ..

برغم هذا تلف ..

انتظرت فى رعب حتى عادت أمها من السوق ، ثم طلبت منها أن تعنى بالطفلة وسرعان ما كانت فى الشارع .. نحيلة واهنة الصحة مبعثرة الثياب تحمل الكمبيوتر فى حقيبة الخضر (كادت تحمل الشاشة ولوحة المفاتيح معها ثم تذكرت أنهما لا علاقة لهما بالكمبيوتر) .. كانت تبحث عمن ينقذها .. عمن ينقذ (فانتازيا) ..

* * *

(صفوت) كان فى (كفر الشيخ) .. لماذا يذهب (صفوت) لـ (كفر الشيخ) .. هذا من حقه على ما أظن .. لكن ليس هذا أنسب وقت لذلك .. ليس من أحد سواه يقدر على إنقاذ هذا الجهاز ..

(شريف) ... لم يبلغ الأمر هذه الدرجة من السوء لحسن الحظ ..

اتصلت بـ (صفوت) على هاتفه المحمول فرد بفم ملىء بالطعام .. من حقه أن يأكل ويتلمظ .. فالورطة ليست ورطته ..

قال لها إنه سيبقى فى (كفر الشيخ) مدة أسبوع .. أسبوع .. هل تنوى أن تصطاف هناك ؟! جميل جدًا .. فقط تذكر أن تحضر معك كسرولة لأضعها على رأسى .. حاول أن تتأكد من مواعيد الزيارة فى المصحة العقلية حتى لا تصير زيارتك بلا جدوى ..

ـ « هناك مهندس شاب بارع .. صديق لى .. اسمه (زيد) .. ربما استطاع معاونتك .. سأعطيك رقم هاتفه .. فقط قولى له إن

القرص الصلب يحوى برنامجًا مهمًا .. يجب ألا يجرى له عملية تهيئة Format »

برنامج مهم فقط .. إنه كل شىء بالنسبة لى ..

عندما رد (زيد) على مكالمتها أخيرًا كان مهذبًا .. وإن كان مندهشًا من كل هذا الحماس .. حتى المخابرات المركزية لا تصاب بهذا الذعر عندما تتعطل أجهزة الحاسب الآلى لديها .

أعطاها عنوانًا لشركة كمبيوتر فى مدينة (نصر) وطلب منها أن تقابله هناك بعد ساعة ..

* * *

ـ « أعتقد أنه لابد من تغيير القرص الصلب .. »

نظرت له فى رعب وهتفت :

ـ « تغييره .. هل .. هل تلف ؟! »

ـ « إن الأقراص الصلبة تتلف كأى شىء آخر .. »

ـ « وهل يتلف هذا البرامج الموجودة عليه ؟ »

ـ « أقول لك إننا سنركب قرصًا جديدًا تمامًا ! »

ـ « لا أصدق أن الأمور بلغت هذه الدرجة من السوء .. هل يمكن استنقاذ المعلومات الموجودة على القرص القديم ؟ »

فكر حينًا ، ثم أشعل لفافة تبغ ونفث سحابة كثيفة من الدخان ، وقال :

ـ « سأحاول .. لكن هذا عسير جدًا .. لا أضمن النتائج .. »

ـ « يجب أن تستطيع .. »

ـ « بل كان يجب عليك أنت الاحتفاظ بنسخ احتياطية Backups ما دامت ملفاتك بهذه الأهمية .. »

ونظر لها فى شك .. لا تبدو عالمة نووية ، ولا تبدو كذلك أديبة تحفظ النسخة الوحيدة من روايتها الجديدة على القرص الصلب .. ربما تحتفظ بمجموعة من المراسلات الغرامية مع أحدهم .. قد يفهم هذا .. لكن أى برنامج يمثل هذه الأهمية لهذه الفتاة ؟

هاتفه المحمول يتوهج ويصدر لحنًا فيرفعه لينظر لشاشته ويطلق سبة ، ثم يضعه حيث كان .. إنه لا يرد على أية مكالمة وكأنه يحمل كشافًا لا هاتفًا .. إذن كانت معجزة حقيقية تلك التى جعلته يرد على مكالمتها بالذات ..

فوجئ بها تتجه إلى مقعد فى الغرفة الصغيرة المطلة على شارع (مكرم عبيد) فتجلس .. صاح فى رعب :

ـ « هل تتوقعين أن أفرغ من هذا وأنت جالسة ؟ »

ـ « هذا ما توقعته بالضبط وإلا لما جلست .. »

ـ « لا .. سوف تتركين لى الجهاز بعض الوقت .. حتى الإسكافى يطالبك بأن تحضرى له حذاء غير الذى تنتعلينه فى قدميك ، ويطلب منك المجىء غدًا ! »

كانت تعرف هذه الحيلة .. عندما تذهب للإسكافى كانت تذهب له بالحذاء المطلوب إصلاحه فى قدميها .. كأنه تمزق حالاً وهى تمشى .. هكذا لا تدع له سبيلاً إلا أن يطلب منها الجلوس ويناولها قطعة من الورق المقوى تريح عليها قدميها ، ثم يصلح الحذاء أمامها ..

لكنها لا تستطيع أن تزعم أن الكمبيوتر كان فى قدميها عندما جاءت هنا ..

ـ « ومتى تنتهى ؟ »

ـ « لا أدرى .. اتصلى بى غدًا فى السابعة مساء .. »

ـ « لن تزيل أى برنامج .. هه ؟ »

ـ « لو استطعت .. »

على الباب توقفت ، وقالت بهمس لم يسمعه :

ـ « أرجوك .. أعده سليمًا .. »

* * *

كان مزاجهـا سيئًا فى البيت ، وقد سألتها أمها عما هنـالك فقالت فى اقتضاب إن معدتها تؤلمها ..

فى حياة كل منا أشياء ثمينة جدًا ، لكنها تجعل الآخرين يتهموننا بالتفاهة أو الضحالة أو الجنون إذا عرفوا بها ، ونتهمهم نحن بالغباء وتبلد المشاعر عندما يبدون سخريتهم ..

لا .. أمها ستفهم موضوع ألم المعدة لكنها لن تفهم موضوع تلف الجهاز أبدًا ..

وعندما استلقت فى الفراش أخيرًا ، رأت بعين الخيال (زيد) وأمامه مطفأة تبغ تكومت فيها الأعقاب ، وهـو ساهر يحاول أن يعيد إلى الجهاز حياته السابقة ..

أرجوك لا تفشل .. لا تفشل ..

ولا تدرى متى نامت ..

ولا تدرى متى انتقلت فى صمت إلى (فانتازيا) ...

* * *

2 ـ لم تبق إلا دقيقة ..

للمرة الأولى لم يكن (المرشـد) سـعيدًا ، ولم يبتسم ابتسـامته السمجة إياها ..

قال لها فى ضيق :

ـ « أنت تعرفين أنك هنا حسب قانون الصدفة .. قد يكون هذا لقاءنا الأخير فعلاً .. من دون الجهـاز يصير لقاؤنـا مرتبطًا بتداعيات عقلك الباطن .. حدث هذا مرة أو مرتين ، لكنـه معدل غير مريح على الإطلاق .. »

قالت مغتاظة :

ـ « أعرف كل جوانب الموقف فلك الشكر .. هذا المهندس يحاول إصلاح (فانتازيا) .. فإما أن ينجح وإما أن يفشل فلا تعود هناك (فانتازيا) فى حياتى .. »

شارد الذهن نظر خارج نافذة القطار ، وقال :

ـ « الحقيقة أننى أجدر منك بالقلق والضيق .. من دون (فانتازيا) لا وجود لى على الإطلاق .. أنا كائن صنعه خيالك ومن دون خيال ينتهى أمرى .. أنت تتحدثين عن فقدان الحلم .. وأنا أتحدث عن فقدان الوجود .. »

ـ « الحلم هو الوجود ! »

ـ « يسهل أن تقولى هذا .. لقد أعطاك الله القدرة على أن تغمضى عينيك وتريحى رأسك على وسادة لتتالى الحلم .. يمكنك أن تغلقى صفحة الكتاب وتطيلى التحديق فى نقوش البساط وهكذا تحلمين وأنت مفتوحة العينين ، حتى لو قيل إنك تعيشين أحلام اليقظة وضربتك المعلمة بكتاب الرياضيات على رأسك .. كل إنسان يحلم إذا أطال التحديق فى النار أو البحر .. أما أنا فليس لى وجود بديل من دونك .. »

ـ « الحلم يعنى وجودك تلقائيًا .. »

ـ « لقد حلمت من دونى عشرين عامًا .. سوف تتعلمين الاستغناء عنى بالتدريج .. »

قالت فى محاولة للمرح :

ـ « لننس هذا ولنتحدث عن مغامرة اليوم .. هل لديك مانع ؟ »

ـ « لا .. »

ثم إنه جذب حبل القطار فتوقف ..

قالت له فى دهشة :

ـ « لم تعرض علىَّ أى خيارات .. »

ـ « وأنت لم تستعملى الجهاز .. هل نسيت ؟! »

لكنها كانت تعرف المنظر .. رأته مرارًا من قبل .. هذه هى (نيويورك) فى أوائل القرن .. ربما عام 1920 أو 1930 .. لو كانت خبيرة فى طراز السيارات لاستطاعت التحديد بدقة ، لكنها كانت تقسم السيارات إلى نوعين : (أوتومبيلات) : وهى التى يجلس فيها (عماد حمدى) مع (شادية) ووراءهما خلفية ساذجة توحى بالطريق معروضة بطريقة (الباك بروجشكن Back projection) على حين تغنى هى ويتظاهر هو بأنه يحرك الدركسيون .. النوع الثانى من السيارات : هى السيارات التى نعرفها !

على أن سيارات هذا العصر كانت أقرب إلى السيارات التى تراها فى أفلام (شابلن) أو التى رأتها عندما كانت فى قصة (المافيا) إياها ..

كان هناك رجال شرطة يصنعون بأجسادهم دائرة .. رجال مطافئ .. هل هو حادث .. المشكلة أنها فى مركز الدائرة فعلاً ..

لكن لماذا ينظر الناس جميعًا إلى السماء ؟! لماذا يضعون النظارات المقربة على عيونهم ؟! لماذا يشهقون ؟!

رفعت رأسها فلم تحتج إلى جهد كبير كى تدرك أن هذه هى (الإمباير ستيت Empire State) مركز الحضارة الأمريكيـة .. مركز الرأسمالية قبل أن يظهر برجا (مانهاتن) وقبل أن يتهاويا .. كانت قد رأت صورًا من فيلم (كنج كونج) وتعرف جيدًا أن هذه البناية كانت الأعلى فى العالم وقتها ؛ لذا اختارها (كنج كونج) ليحمل حبيبته (فاى راى) إلى هناك ..

من قمة البناية يتدلى حبل .. وفى نهاية الحبل ترى بصعوبة - لبعد المسافة - جوالاً كبيرًا يلتف بجنازير عملاقة .. المشكلة هى أن الحبل يشتعل ! هناك نار تحرقه ولا شك أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يتهاوى الجوال ..

رجال الشرطة يبعدون المارة وهم لا يرفعون عيونهم عن السماء .. جو عام من التوتر ..

ثم ينظر لها أحدهم نظرة ذات معنى (لكن أى معنى بالضبط ؟!) ويقول :

- « لم تبق إلا دقيقة ! »

ما دخلها بهذه المعلومة .. لكنها ترى انعكاس ثيابها فى واجهة متجر ، فترى (مسخرة) حقيقية .. إنها تلبس ثيابًا عجيبة قصيرة أقرب إلى فتاة استعراض .. لهذا هى تقف وسط الدائرة ، ومعنى هذا أن استعراضًا يتم .. ولكن ما هو ؟

الحبل يحترق أكثر .. وهى تزداد رعبًا ..

لقد فهمت .. هناك رجل يتدلى من الحبل وقد تم ربطه بالجنازير .. ويبدو أن على هذا الرجل أن يتحرر قبل أن يحترق الحبل بالكامل .. تلك السقطة لن تكون هينة أبدًا لأنه لا توجد شبكة أمان .. هذا الأحمق المعلق أعلاها يثق بنفسه أكثر من اللازم ..

صرخت فى رجال المطافئ بلهجة (نيويوركية) ممتازة :

- « هل تقفون ... لماذا لا تفعلون شيئًا ؟! »

قال أحد الرجال ، وهو يمس قبعته ذات الشكل المميز :

- « لا نستطيع يا سيدتى .. مهمتنا هى منع امتداد حريق من الحبل المشتعل فقط ! »

إنهم مجانين .. ولماذا يقدم شخص بكامل قواه العقلية على خطوة كهذه .. الانتحار .. إذن لماذا كل هذا التعقيد ؟!

قطعت خواطرها صيحة طويلة تصاعدت من آلاف الحناجر .. صيحة لا علاقة لها بالرعب ..

رفعت عينيها لأعلى ففوجئت بأن الجوال ممزق ، وأن رجلاً يقف على إفريز نافذة ، وهو يلوح بيده محييًا الجماهير ..

هنا فقط انقطع الحبل وتهاوى إلى الشارع وخلفه نهر من الشرر .. فصرخ الناس وابتعدوا ..

كانت ترمق المشهد عندما أغشى عينيها وهج ساطع أصابها بالعمى مع صوت (بوم !) .. عندما استعادت بصرها أدركت أن هذه هى الفلاشات .. فلاشات آلات تصوير يحملها صحفيون عتيقو الطراز ، عندما كان الصحفى يشعل الماغنسيوم ليعطى وهجًا يسمح بالتقاط صورة ، وعندما كان يدس فى قبعته بطاقة تحمل اسم الجريدة التى يعمل فيها ..

سمعت الصراخ والتهليل .. وامرأة باكية مولولة ركضت لتحتضنها ، وقالت فى حماس :

ـ « لـ .. دق .. سدك .. جك .. هئ هئ ! »

ثم تمخطت فى كتف ثوب (عبير) ، وعادت تقول بوضوح أكثر :

ـ « لا أصدق .. أنا أحسدك على أن هذا الرجل زوجك ! »

وانقضّ عليها صحفى يسألها ، وهو يصوب قلمه كالخنجر فى وجهها :

ـ « بم تشعرين وأنت زوجة (هودينى) ؟ »

هنا فقط تصلب الشعر فى مؤخرة عنقها ..

الآن تفهم أين هى ومن هى ....

(هودينى) !

★ ★ ★

3 ـ زوجى العظيم ..

عندما هبط (هودينى) إلى الأرض أخيرًا كان مرهقًا غارقًا فى العرق ، لكنه يتمتع بروح مرحة حقًّا .. أمكنها أن تراه بوضوح وأدهشها أنه قصير القامة لكنه مكتنز العضلات مشدود كالوتر ، من الطراز الذى نطلق عليه (مدكوك) .. ذلك الجسد الغريب الذى يذكرك بجسد (مارادونا) لو أن هذا الأخير كان أكثر رشاقة ..

التفّ الناس يهنئونه .. وكانت هى الآن قد فهمت كل شىء ..

(هارى هودينى Houdini) عبقرى الهروب .. الأب الشرعى لكل تلك الألعاب التى يتم فيها تقييد الساحر أو وضعه فى تابوت أو غمره تحت الماء ، ثم الانتظار حتى يحرر نفسه بطريقة عبقرية غير مفهومة .. من تحت عباءته خرج كثيرون ، وأشهرهم عندنا فى مصر (ديفيد كوبرفيلد) الذى ما زال كثيرون يعتبرونه قد باع روحه للشيطان ..

لما التقت عيناهما ، قال باسمًا :

ـ « هل كان العرض طيبًا يا (بيس) ؟ »

إذن هذا هو اسمها .. وهو اسم غريب لم يرق لها كثيرًا .. لو عرفت أنه تدليل لاسمها الحقيقى (فلهلمينا بياتريس رانر) لوجدت أنه اسم لطيف حقًا ..

قالت له فى مرح :

ـ « رائع .. لقد توقف قلبى رعبًا للحظات لكن هذا كل شىء .. »

قال وهو يجفف العرق :

ـ « لم أستطع أن أتقيأ المفتاح المختار ! لهذا اضطررت لاستعمال دبوس الشعر ! »

تقلصت معدتها لدى سماع هذه المعلومة .. فى الحقيقة كان (هودينى) يجيد هذا الفن العجيب .. أن يخرج من معدته المفتاح الذى يريده بالذات ..

المعلومة الأخرى المهمة هى أن (هودينى) بدأ حياته صبيًا لدى صانع أقفال ، وكانت هذه الخبرات الغريبة هى التى أفادته فيما بعد فى فتح كل الأقفال الصعبة التى يواجهها !

وقف أمام الصحفيين .. كله مهابة وخيلاء واستعراضية .. من المفيد دومًا أن يكون المذيع أو العارض نرجسيًا إلى حد الجنون .. لعل هذه هى الفائدة الوحيدة للنرجسية ..

قال لهم :

ـ « أما وقد رأيتم عرضى فإننى أدعوكم لحضور العرض القادم .. إنه عبارة عن فرارى من زجاجة لبن عملاقة سيتم غمسى فيها وأنا مقيد تمامًا .. »

هتف أحد الصحفيين :

ـ « جرّبها (جيمس والاس) من قبل .. »

ضحك (هودينى) وقال بلهجة ذات معنى :

ـ « ومات غرقًا ! فى العادة لا نعتبر الفقرة ناجحة إلا لو ظل الساحر حيًا ! وإلا فإن كل الموتى فى قبورهم سحرة شديدو البراعة ! »

ثم أشار لصدره ، وهتف :

ـ « أنا (هارى هودينى) سأفعلها ! »

ووقف يوقّع الكثير من الأوتوجرافات .. كانت هناك فتيات كثيرات ، وأدركت (عبير) أن لحظات صعبة تنتظرها ؛ لأن السيد زوجها يروق للفتيات كثيرًا .. لابد أن زوجته الحقيقية كانت تتمتع بأعصاب من حديد ..

من بين المتزاحمين ظهر رجل وقور ضخم الجثة كالكابوس .. كان له شارب كث أنيق ينحدر على جانبى فمه ، ويلبس بذلة من (التويد) تتدلى من صدارها عدة سلاسل .. كل شىء فيه يوحى بأنه لورد إنجليزى ، أو ...

ـ « سير (آرثر) ! »

كذا صاح (هودينى) وهو يشق طريقه وسط بحر المعجبات ..

إذن فهذا الرجل الضخم إنجليزى كما توقعت فعلاً .. وهو (سير) كذلك .. ليس (سير موتور) طبعًا ، وإنما هو يمثل بريطانيا فى عهد الإمبراطورية ..

قال (السير) المذكور :

ـ « (هارى) ! أنت عاجز عن الفشل ! »

قال (هودينى) بتواضعه المعروف :

ـ « فعلاً .. هذا هو الشىء الوحيد الذى عجزت عنه تمامًا .. أعتقد أن هؤلاء الذين يفشلون عباقرة أو موهوبون .. »

فليساعدها الله .. إن التعامل مع هؤلاء الذين يعانون (الميجالوثيميا) ـ تضخم الإحساس بالذات ـ صعب فعلاً ..

قال المدعو سير (آرثر) :

ـ « إننى راغب فى دعوتكما إلى العشاء هذه الليلة لو لم يكن لديك مانع ؟ »

قال (هودينى) :

ـ « أنت ضيف على بلادى يا سير (آرثر) .. »

ـ « فلتنس هذا .. إننى لم أكفَّ عن اعتبار الولايات المتحدة وطنى كذلك .. »

هكذا اتفق الرجلان على موعد فى مطعم فاخر هذه الليلة ..

* * *

أمام المرآة يقف (هودينى) يصفف شعره بعناية .. كانت هى قد ارتدت ثوبًا أنيقًا وجدته فى خزانة ثيابها .. قالت له فى ضيق ، وهى تنظر إلى الساعة المعلقة على الجدار :

ـ « سوف نتأخر عن موعدنا .. »

قال وهو ينتزع شعرة من رأسه :

ـ « شعرة بيضاء .. لو رآها الناس لحسبوا أن (هودينى) العظيم قد دبَّت فيه الشيخوخة .. »

يا لغرابة الموقف ! من المعتاد أن يقف الرجل عجولاً نافد الصبر بينما زوجته أمام المرآة ، أما هنا فالوضع ينقلب تمامًا .. إنها متأهبة منذ نصف ساعة ..

فى النهاية التفت لها ، وقال :

ـ « بالنسبة لذلك الصحفى (راينهارت) .. لقد كان يقف جوارك طيلة العرض .. كنت متدليًا هناك من أعلى ورأيته يقف جوارك .. إن نظر (هودينى) حاد كالصقور .. »

إذن هناك صحفى يدعى (راينهارت) وهو يحوم حولها .. للمرة الأولى تعرف هذا ..

قالت فى شىء من التشفى ، وبلهجة مسمومة :

ـ « غريب .. كنت أحسب السيد (هودينى) هو الوحيد المحاط بالمعجبات .. »

ـ « هذا جزء من عملى .. من عملنا .. أنت كنت فتاة أكروبات وتعرفين أهمية أن يكون المرء لطيفًا مع المعجبات .. »

ـ « ويجب أن يكون كذلك مع الصحفيين أيضًا .. »

نظر لها نظرة نارية .. من الجميل أنه يغار إذن .. هذه علامة صحية .. الرجل الذى يغار يبرهن على أنه قادر على التفكير فى

شىء واحد غير ذاته .. والرجل الذى يغار يبرهن عن نقطة بشرية واحدة على الأقل فى أعماقه .. أنه يخشى أن يفقد من يحب ..

هنا دق الباب قبل أن يرد ، فاتجه ليفتحه ..

الفتى النحيل العامل فى الفندق نظر لـ (هودينى) العظيم فى إكبار ، ثم ناوله برقية .. فضَّ (هودينى) الظرف ، وألقى نظرة على محتواها ، ثم هتف :

ـ « سير (آرثر) يعتذر عن موعد العشاء .. لقد تُوفِّى ابنه ! »

صاحت فى ذهول :

ـ « توفى ابنه وما زال بوسعه أن يرسل برقية يعتذر بها عن العشاء ؟! »

ـ « لا تنسى أنه بريطانى .. المواعيد هى شرفه .. يقول إنه سيحاول العودة إلى بريطانيا حالاً .. أرى أن نذهب للعشاء فى مطعم آخر .. »

ـ « أرى أن ترسل له برقية عزاء أولاً ... »

ـ « بالتأكيد .. لكنى سأرسلها إلى بريطانيا .. »

تنهَّدت وفكرت .. لقد كان مجيئها إلى نيويورك نحسًا على شخص واحد على الأقل ..

4 ـ فى قبضة الوسطاء ..

عندما هاجر (إريك فايس) المهاجر المجرى الفقير مع أسرته إلى الولايات المتحدة فى نهاية القرن التاسع عشر ، لابد أنه وقف يرمق تمثال الحرية على ظهر السفينة التى تحمله إلى (مانهاتن) وهو لا يعرف ما يخفيه له الغد خلف وجه (الآنسة حرية) الرومانى البارد الصامت .. كان أصغر من أن يراه وجه غانية ملطخة بالأصباغ كما حدث مع مخرجنا (يوسف شاهين) .. كان (فايس) طفلاً فى الرابعة من عمره ، لهذا كان التأقلم مع ذلك العالم الجديد سهلاً نسبيًا ..

عمل لفترة فى بيع الصحف ، ثم كما عرفنا من قبل عمل فى إصلاح الأقفال وهى خبرة ظل يحمل لها العرفان طيلة حياته ..

عام 1891 قرر أن يحترف مهنة السحر .. بعبارة أدق يحترف الشعوذة .. السحر القائم على خفة اليد والذى يقدمه الحواة على المسارح وفى السيرك .. واختار لنفسه اسم : (هارى هودينى) لأنه كان معجبًا بساحر فرنسى شهير اسمه : (جان روبرت هودان) ..

فى البداية مارس ألوان السحر المعروفة .. الأرنب من القبعة .. أوراق اللعب .. العصا السحرية .. بالطبع لابد من المرأة التى ينشرها إلى نصفين وكرات (البنج بونج) التى يخرجها من فمه .. إلخ ..

وفى العام 1900 قرر أن يتجه إلى مجال محبب جدًا من فنون السحر هو (الهرب) ..

* * *

فى الأيام التالية عرفت (عبير) الكثير من تفاصيل حياة هذا الرجل غريب الأطوار .. المتمتع بذكاء مخيف ولياقة جسدية جديرة ببرغوث !

كان (هودينى) يمارس ألعابه معتمدًا على لياقة جسدية غير عادية .. عندما يلفون الحبال أو السلاسل حول جسده كان ينفش عضلاته إلى نهايتها ، هكذا ترتخى القيود عندما يرخى عضلاته .. هذا الأسلوب الذى يمارسه الحواة فى الأسواق عندنا على طريقة (أنا عاوز تلاتة يكتفونى) الشهيرة .. لم تكن (عبير) منبهرة بهذا بشكل خاص لأنها رأت (أبو شبكة) يؤديه فى الموالد كثيرًا .. وكان المذكور يبتلع النار كذلك ويضرب صدره بحجر زنته 30 كيلوجرامًا ، ولم يحتشد حوله الصحفيون ولم تخصص له المجلات أغلفتها ..

أما طريقة فتح الأقفال عند (هودينى) فكانت تعتمد على ترسانة لا تنتهى من الحيل .. منها ضرب القفل فى موضع معين يعرفه هو ، والمفاتيح الدقيقة التى يخفيها فى كل مكان ..

(هودينى) من القلائل الذين يستطيعون إخراج المفاتيح من معدتهم وقت الحاجة ..

أضف لهذا أنه كان مخرجًا مسرحيًا بارعًا وكان يجيد تصميم العرض بحيث تنقطع أنفاس المشاهدين .. فى بدايات ممارسته لمهنة الهرب كان يؤديها خلف ستار .. أى إن تقييده يتم على المسرح ثم يسدلون ستارًا عليه وعندما يزيحون الستار يكون قد تحرر .. هذا أدى لاتهام الصحفيين له بأن مساعديه يتسللون وراء الستار لفك قيوده ..

كانت هناك إشاعات أخرى عن أنه يؤدى العرض ، ثم يظهر أخوه الذى يشبهه كثيرًا أمام الجمهور ..

هذا ما دفعه إلى اتخاذ سياسة جديدة لم يتبعها الحواة من قبل ، هى أن يؤدى الفقرة كاملة أمام عيون المشاهدين .. أى أنهم يرون كل تفاصيل الهرب لحظة بلحظة ، والغريب أن هذه الطريقة زادت من نجاحه وجعلت عروضه مثيرة تقطع الأنفاس ..

أما عن (عبير) زوجته فكان دورها سخيفًا جدًا يتلخص فى أن تقف بثياب الاستعراض ، وتبدى الرعب على زوجها عندما يكبلونه .. ثم يظهر زوجها حيًا سليمًا ، فترفع ذراعها لأعلى وتأتى بحركة راقصة بساقيها ، ثم تقبّله أمام الصحفيين ..

هذا كل شىء ..

ولكن كان من المتوقع مع حياة كهذه أن يكون لديه أضيق وقت ممكن للتعامل معها .. معظم الوقت كان يقضيه مع مدير أعماله يتدارسان العرض القادم ..

ـ « التابوت فكرة ممتازة .. سيتم لفّى بالكامل فى الأكفان والأربطة كمومياء فرعونية ، ثم أوضع فى تابوت ويتم دفنى أمام الشهود .. المفترض أن أخرج خلال عشر دقائق وإلا انتهى الأكسجين وقُضى علىّ ! »

فيقول المدير وهو يفكر فى عمق :

ـ « لا أرى هذا .. يمكن استخدام فكرة الأربطة والأكفان ، لكن يتم تكبيلك بأثقال حديدية ، وتأتى سفينة لتلقى بك فى المحيط .. يجب أن تخرج خلال خمس دقائق وإلا اختنقت .. »

يهز (هودينى) رأسه فى حماس :

ـ « جميل .. وبالطبع سأستعمل أسطوانة أكسجين مخفية تتيح لى بضع دقائق إضافية .. عندما يطول الوقت ، وييأس الجميع من خروجى حيًا سوف أخرج لهم من تحت الماء ملوّحًا .. »

ـ « ربما يمكن أن تتشبث بزعنفة درفيل وتلبس مثل (نبيتون) .. »

ـ « هذا عسير .. لا يمكن العثور على درفيل بهذه السرعة .. »

ـ « ربما عروس بحر .. يمكن أن نجد غواصة بارعة تضع قدميها فى سراويل لها شكل الزعنفة .. »

كانت هى تصغى وهى موشكة على الجنون .. هذان المخبولان يناقشان الطريقة المثلى لتحويلها إلى أرملة .. هل هذه المشاعر طبيعية .. هل (هودينى) مجرد ساحر بارع أم هو مريض بدرجة ما من (الماسوشية) بحيث لا يشعر بلذة إلا عندما يرى نفسه مقيدًا معدوم الحيلة .. هناك خلل نفسى اسمه (التافيفيليا) حيث يولع المريض بفكرة الدفن ، وتجده يتكلم عن الموت باشتهاء وتلذذ ..

لكنها تلعب دور زوجة (هودينى) المتفهمة التى تشجعه على النبوغ ؛ لذا تصمت ..

* * *

رسالة وصلت (هودينى) من إنجلترا .. كيف عرفت أنها إنجلترا .. لأنها البلد الوحيد الذى لا يكتب اسمه على طوابع البريد .. وقد استلقى (هودينى) فى مقعده الأثير وهو يريح قدميه فى خفهما الصوفى على مسند ويطالع الرسالة باهتمام .. ومع الرسالة كان هناك طرد ملىء بكتب ما ..

قال لها لما انتهى من القراءة :

ـ « هذه رسالة من سير (آرثر) .. »

ثم بدا عليه الهم وراح يفكر فى عمق :

ـ « إن حالة الرجل العقلية تثير قلقى .. لم أتوقع أن تؤثر فيه وفاة ابنه إلى هذا الحد .. يبدو أن السؤال الأبدى ظل يؤرقه : ماذا يحدث بعد الموت ؟! ذلك السؤال الذى لن نعرف إجابته أبدًا لأن أحدًا لم يعد من هناك .. »

قالت وهى تضع قدحًا من الشاى أمامه :

ـ « الأديان تقدم هذه الإجابة .. »

ـ « السير (آرثر) نشأ نشأة كاثوليكية صارمة ، لكنه غير متدين .. إنه ينتمى لمذهب (اللا أدرية agnosticism) .. أى أنه يرى أن عقلنا البشرى غير قادر على معرفة الحقيقة .. لهذا وقع فى أشد الشراك سذاجة .. لقد سمح لنفسه بأن يزور وسيطًا روحانيًا استحضر له روح ابنه .. يقول سير (آرثر) إن الوسيط كان يتكلم أثناء الجلسة بصوت ابنه ، ويقول كلامًا لا يعرفه سوى ابنه .. إنه واثق من أن روح ابنه قد اتصلت به .. »

قالت (عبير) :

ـ « أنا لا أؤمن بتحضير الأرواح .. »

صاح فى حماس :

ـ « وأنا لا أؤمن به البتة ، لكن العجوز طيب القلب يريد أن يصدق هذا .. يريد أن يعتقد أن ابنه يتصل به فعلاً .. هكذا سيترك نفسه فريسة للنصابين .. »

وراح يحكى لها كيف أن السير (آرثر) ـ حسب الخطاب ـ التحق بالجمعية البريطانية للبحوث الروحانية التى ضمت أسماء مثل رئيس الوزراء البريطانى (بلفور)[*] و(ألفريد راسل) و(ويليام جيمس) .. لقد حققت الجمعية فى قصة معتادة جدًا عن بيت مسكون .. عن كلب يرفض دخول أجزاء معينة من البيت ، وزوجة تسمع سلاسل تجرّ على الأرض ليلاً .. وقد كلف سير (آرثر) بتقصى هذه القصة ، وقضى ليالى سوداء فى المنزل إلى أن سمع زئيرًا ذات ليلة .. ثم غادر البيت دون أن يتأكد مما إذا كان مسكونًا أم لا .. لكن بعد فترة اتضح أن هناك طفلاً قتيلاً مدفونًا فى الحديقة ، وقد جعله هذا على ثقة تامة بأن قصص البيوت المسكونة حقيقية .

ـ « لقد صار صديقًا حميمًا لـ (دوجلاس هوم Hume) .. »

(★) نعم .. هو (بلفور) صاحب وعد (بلفور) المشئوم ..

ـ « وهل هذا مهم ؟ »

ـ « الرجل وسيط روحانى أسكتلندى شهير .. بالنسبة لى هو نصاب أسكتلندى شهير .. »

لم يبد لها الأمر مهمًا لهذا الحد ، فقالت :

ـ « ما دام هذا يريح سير (آرثر) فلتدعه . ما دام هذا الاهتمام لا يكلفك مالاً أو جهدًا أو يدخلك السجن فليعتقد ما يريد .. »

دسّ الخطاب فى جيب (الروب) الذى يرتديه ، وقال :

ـ « أشعر أن هذا الرجل طفل كبير ضخم غرير .. وأن علىّ أن أحميه من نفسه .. »

تذكرت شكل الرجل الضخم المهيب بشاربه الكثّ ، وبالفعل بدا لها ساذجًا إلى حد ما .. لقد صار عرفًا أن ضخام الجثة أطيب قلبًا من سواهم حتى صار الاستثناء غريبًا ..

يسهل على من يرى (هودينى) بجسمه الضئيل الماكر أن يدرك أنه ليس بالرجل سهل المضغ على الإطلاق .. (كل قصير مكير) كما كان معلمها فى الصف يصف صديقتها (سوسن) التى كان يدللها بـ (سوسة) ..

مد (هودينى) يده إلى الطرد وأخرج مجموعة من الكتب ، وقال فى سخرية :

ـ « يتوقع منى أن أقرأ كل هذا الهراء وأبدى رأيى .. لا يعرف أننى مشغول جدًا .. »

تأملت العناوين فقرأت عبارات لا تبعث الطمأنينة فى النفس مثل : (الإلهام الأخير) و(الرسالة الحيوية) و(تهاويم روحانى) و(قضية التصوير النفسانى) .. على الأقل هى تعرف شيئًا عن الموضوع الأخير .. الوسطاء الذين يلمسون الكاميرا ؛ فيسجلون أحلامهم على الفيلم ..

قال (هودينى) وهو يرتّب الكتب :

ـ « على كل حال هى سميكة وصالحة لاستبدال أرجل المناضد المكسورة .. لا أحب السير (آرثر) إلا عندما يكتب قصصًا بوليسية .. »

ثم تنهد ، وأردف :

ـ « لا أدرى لماذا لم يرزقه الله بشىء من ذكاء بطله (شيرلوك هولمز) ! »

هنا ارتجفت (عبير) من جديد ..

إذن سير (آرثر) لم يكن سير (آرثر) فقط ..

إنه سير (آرثر كونان دويل Doyle) !

* * *

5 ـ قدوم الحوريات ..

(آرثر كونان دويل) ذلك الأديب البريطانى العبقرى الذى قدم للعالم شخصية (شيرلوك هولمز) .. ذلك المخبر الموهوب عازف الكمان قوى الملاحظة الذى لا يفوته شىء ، وهو (دويل) ذات الرجل الذى قدم (العالم المفقود) و(النطاق السام) .. لقد قابلت (عبير) (هولمز) مرارًا فى (فانتازيا) لكنها لم تلق مؤلفه ..

إذن هناك صداقة حميمة تربط بين هذا المؤلف ، وذلك المشعوذ الأمريكى الشهير (هودينى) ..

هذا شىء لم يخطر ببالها قط .. فى الواقع ما دامت قد صنعت قصة كاملة عن الموضوع ، فهى قد قرأته .. لكنه لم يعلَق بذاكرتها ونسيته فى زحام الحياة .. فقط لا شىء يُنسى فى العقل الباطن .. كل شىء يستقر فى البالوعة يتحيّن لحظة الخروج .. ومتى يخرج إن لم يكن فى الحلم ؟!

متى يخرج إن لم يكن فى فانتازيا ؟!

* * *

وقفت (عبير) مع رجال الشرطة خارج تلك البناية العتيقة ..

كان هناك صحفيون وجمهور مشاهدين .. بالتالى يتعلق الأمـر ـ طبعًا ـ بمحاولة هروب يقوم بها (هودينى) ..

الزحام والأضواء تجعل وعيها يضطرب ، لكنها بالطبع لا تقدر على التخلى عـن دورهـا .. أن تقـف هنـاك وتشـير بحركـات استعراضية سخيفة إلى البناية وتظهر القلق ..

امرأة سألتها فى حذر :

ـ « هل تقدّرين أن زوجك قد لا يعود أبدًا ؟ »

قالت (عبير) :

ـ « لو لم أقدّر ذلك فلا قيمـة لهذا الاستعراض أصلاً ... إن مهنته هى الخطر .. هى المجازفة بحياتـه .. على الزوجـة أن تقف وراء زوجها وتساعده فى القيام بالأعمال الحمقاء والمخـاطرة بحياته ما دامت تلك مهنته .. وفى اليوم الذى لا يرتكب فيه عملاً أحمق ألومه بشدة على هذا الكسل ! »

نظر أحد المساعدين إلى مدير أعمال (هودينى) فبادلـه النظرة ، وقـال :

ـ « هلمّ .. أشعل الفتيل .. »

يشعل المساعد الفتيل فتسرى الشرارة فيه .. إنـه فتيل طويل سوف يصل إلى القبو خلال عشر دقائق مفجـرًا أطنانـًا مـن الديناميت ، وبالتالى سيتحول كل شىء هنا إلى مسحوق ..

كان (هودينى) قـد قرأ فى الصحف نيـة الحكومـة هدم هذا السجن ؛ لتبنى مكانه سجنًا أجمل وأكبر يتسع لعدد اللصوص المتزايدين فى المجتمع الأمريكى .. هكذا خطرت له فكرة العرض الجديد .. سوف يحبس نفسه فى زنزانة ويقوم الحراس بتقييده بالسلاسل والجنازير والأصفاد ، ثم يتـأكدون مـن غلـق البـاب بإحكام بمفتاح خاص ..

كل هذا مثير لكنـه غير كـاف .. الأهم هو تلك الأطنـان من المتفجرات الموضوعة فـى القبو التـى ستنهى كل شـىء مـا لـم يتمكن من الخروج خلال عشر دقائق ..

(هودينى) لا يفشل .. لقد تعلّمت (عبير) هذا منذ زمن ، لكن هناك مرة أولى دائمًا .. وفـى حالتنـا هذه ستكون المـرة الأولـى هى الأخيرة ..

اللهب يسرى بطول الفتيل .. يمشى .. يزحف ..

قال مدير الأعمال فى توتُّر :

ـ « خمس دقائق .. »

إنها ترى بعين الخيال كيف يتملَص (هودينى) من قيوده .. يبحث بين ثنيات ثيابه عن المفتاح الذى يصلح لكل الأقفال .. يحاول معالجة قفل الباب .. لو لم يستطع سوف يدق على القفل فى مواضع معينة يعرفها جيدًا .. تراه يركض فى ممرات السجن الخالية .. لا يوجد مصعد والدرج متهدم ؛ لذا سوف ينزلق على ماسورة مياه لأسفل .. ثم يركض قاصدًا فناء السجن ..

ـ « أربع دقائق .. »

ـ « ثلاث دقائق .. »

الآن بدا واضحًا أن المشاهدين متوترون فعلاً ..

وجاء رجل شرطة متوتر بدوره يتأكد من أن الناس يقفون على مسافة كافية من موضع الانفجار .. لا نريد قتلى هنا ..

قال مدير الأعمال :

ـ « فى الحقيقة بقيت له دقيقة واحدة .. يجب أن يبتعد مسافة كافية .. »

ونظر لها نظرة هى مزيج من شفقة وتوتر .. وبلل شفته السفلى بلسانه ..

لكنها غير قلقة .. (هودينى) لا يفشل .. ثم إن هذا المتبختر يُقَيِّم حياته بسعر أغلى مما يقيمها بـه أى واحد من الواقفين .. هذه مشكلته ولسوف يحلها ..

ـ « دقيقة ! »

فى اللحظة التالية رأت المشهد الذى اعتادته ورأته عدة مرات ..

رأت المشعوذ يركض خارجًا من فناء السجن فالبوابة .. العرق يغمره لكنه راض .. فقط صرخ فيهم :

ـ « ابتعدوا ! »

وسرعان ما دوى الانفجار المريع الذى جعل الأرض تهتز كأن هذا بركان .. عندما تضع المتفجرات فى القبو تتهاوى البناية كأنها عملاق فقد القدرة على أن يظل واقفًا ..

تتهاوى الأعمدة وتتصاعد سحب الدخان .. كأننا فى قصف بالغازات من الحرب العالمية الأولى ..

بينما تلفُ هى زوجها بالروب وتجفف عرقه ، يلتف حوله رجال الصحافة وتنفجر أضواء الفلاشات .. غدًا تحمل عناوين الصحف نصرًا جديدًا يحققه المشعوذ ذو الأصل المجرى ..

« هودينى والفرار من زنزانة مهددة بالانفجار .. »

« سيد الهرب والنجاح من جديد .. »

كان مدرس الإنجليزية فى المدرسة يقول لها إنه ما من جملة إنجليزية كاملة لا تحوى فعلاً .. الحقيقة أنه ما من عنوان لجريدة أمريكية إلا وخلا من الأفعال تمامًا ..

سمعته يقول همسًا ، وهو يعتصر ذراعها فى قسوة :

ـ « قلت لك ألا تقفى مع هذا الـ (راينهارت) ! »

ـ « من هو ؟ »

ـ « ذلك الصحفى الوسيم الذى تهوينه ! »

كادت تصيح محتجة إنها لا تعرف حتى كيف يبدو هذا الرجل .. لقد بدأت تعتقد أن (راينهارت) هذا شبح لا يراه سوى (هودينى) .. لكن قطع احتجاجها أن سمعت الصوت المألوف من خلفها يقول :

ـ « موهوب .. موهوب فعلاً .. »

نظرت للخلف مدركة أنها سترى السير البريطانى العملاق ..

ـ « سير آرثر ! »

كذا هتف (هودينى) واندفع نحو الرجل يصافحه .. هذا نوع من العناق بالنسبة للبريطانيين ..

هذه المرة راحت (عبير) تتأمل الرجل فى انبهار .. تذكرت أنها رأت ممثلاً شهيرًا فى مصر ذات مرة ، ولكنها لم تتصور أنه هو ولا أنه يمكن أن يقف فى الشارع جوارها ؛ لذا لم تعبأ به .. لكنها عرفت فيما بعد وندمت كثيرًا على أنها لم تملأ عينيها منه ..

هذه المرة كانت تقف على بعد متر من مؤلف (شيرلوك هولمز) ولم تعرف إلا أنه (سير آرثر) .. اليوم تمعن النظر فى وجهه بانبهار .. من هذا الرأس من أى موضع فيه بالذات ؟ خرجت قصة (كلب آل باسكرفيل) .. ومن هنا خرجت قصة (العصابة الرقطاء) ومن هنا خرجت قصة (رابطة ذوى الشعر الأحمر) .. كل عوالم (هذا بديهى يا عزيزى واطسن) و(حفظ الله الملكة) و(لو أوصلتنا أيها الحوذى إلى محطة كنجز كروسنج خلال ساعة لظفرت بجنيه كامل) ... كل هذه العوالم خرجت من هذا الرأس العبقرى ..

لكن (دويل) كان ينظر بدوره إلى (هودينى) فى انبهار .. وقال له ، وهو يشعل سيجارًا :

ـ « ألا تعتقد أنك تملك قوى خارقة للطبيعة تتيح لك الهرب ؟ »

قال (هودينى) ضاحكًا :

- « بالطبع لا .. أنا مجرد مشعوذ يتمتع بخفة اليد .. على كل حال أفضل هذا .. الفضل كل الفضل لى فى الهرب ، بينما لو امتلكت قوى سحرية فلا دور لى سوى الحظ .. أنا أفضل البراعة على الحظ يا سيدى ! »

كانت ذات الفكرة قد خطرت لها مرارًا فيما يتعلق بشخصية (سوبرمان) ... (سوبرمان) الذى جاء من كوكب آخر فصار خارقًا .. الرصاص لا يؤثر فيه فأية شجاعة هي ، وأى فضل له فيما يقوم به .. بينما شخصية (باتمان) جديرة بالإعجاب فعلاً لأنه بشرى مثلنا ..

قال (دويل) وهو ينزع قبعته ويحييها :

- « ما زلت مدينًا لكما بدعوة على العشاء .. وقد حان وقت ذلك .. »

قال (هودينى) :

- « هذا يناسبنى .. أشعر بجوع شديد بعد أداء فقرات الهروب .. »

* * *

على العشاء فى ذلك المطعم الإيطالى مع الأصناف التى لا تعرف كنهها بدا (دويل) أقرب إلى المرح والانطلاق .. وتذكرت (عبير) كلمات (هودينى) ... لقد أعطاه الإيمان بالروحانيات أملاً ما .. إن ابنه لم يمت بل هو هناك يراقب .. وربما ينتظر ..

مزية هذا المطعم أن أحدًا لم يتعرف (هودينى) العظيم هنا .. هذه هى مشكلة سيد الهرب أينما ذهب ومن المبالغة أن نزعم أن هذا كان يضايقه ..

قال (دويل) وهو يشعل سيجاره الغليظ ، بعد انتهاء الوجبة :

- « فى كل يوم يسفر ذلك العالم اللامرئى عن دليل جديد .. »

ومد يده إلى جيبه ليخرج مظروفًا مليئًا بالصور ، وأخرج منه صورتين ..

نظرت (عبير) إلى الصورة الأولى فبدت لها مألوفة .. تلك الطفلة الراقدة بين الأشجار ، وهى تتأمل بشكل ناعس مجموعة من الحوريات الصغيرات ..

قال (دويل) :

- « (كوتنجلى Cottingley) .. إنها بلدة قرب (برادفورد) فى وطنى .. هل زرتها يا (هارى) ؟ »

قال (هودينى) وهو يتأمل الصورة دون حماس :

ـ « لا .. »

قال (دويل) :

ـ « هناك فى تلك البلدة طفلتان .. (فرانس) و(إلسى) .. هاتان الطفلتان رأيتا حوريات فى حديقة دارهما ، واستطاعتا أن تلتقطا لها بعض الصور .. هذه هى الصور وهى دليل لا يتطرق إليه الشك على أن الظاهرة حقيقية .. »

نظرت (عبير) إلى الصورة ، ثم قالت :

ـ « لكنها صور ملفقة .. »

صاح فى غضب وهو يضرب المائدة بيده :

ـ « ملفقة .. خبراء تصوير وخبراء تحميض فحصوا الصور وقالوا إنها حقيقية .. خبير رقص قال إن رقص الحوريات حقيقى وغير مألوف .. كيف تتخيلين أن يستطيع الأطفال تلفيق أشياء كهذه ؟! »

إذن هو من الطراز الذى يعتبر الأطفال ملائكة أبرياء لايكذبون .. وكلنا يعرف أن الأطفال أعتى كذابين يمكن تخيلهم .. هناك قصة قصيرة لـ (براندللو) تحكى عن أسرة كاملة دفعت ثمن ثقتها فى (الملائكة الصغار) هؤلاء ..

هنا قال (هودينى) بطريقته العقلانية فاقدة الصبر :

ـ « هل من شهود آخرين ؟ »

ـ « لا .. الحوريات تأبى أن تظهر لأى شخص غير الطفلتين .. »

ثم مد يده إلى ملف صغير وضعه على المقعد جواره ، وقال :

ـ « هذه هى مُسَوَّدات كتابى (قدوم الحوريات) الذى يناقش هذه الظاهرة (العلمية) ! »

تبادلت (عبير) وزوجها النظرات ، وأدركت أنه يفضل أن يصمت ..

قال (هودينى) وهو يملأ فمه بالطعام :

ـ « موضوع مثير .. أهنئك عليه .. لقد أقنعتنى.. »

نهض سير (آرثر) إلى الحمام فأسرعت (عبير) تقول لزوجها :

ـ « أقنعك ؟ »

قال باسمًا :

ـ « أقنعنى بأنه طفل كبير .. هذه رسوم حوريات تم التفريغ حولها بالمقص ، وتم تثبيتها إلى فروع الأشجار .. لا يمكن أن

تخدع هذه الصور طفلاً لكنها خدعت مؤلف (هولمـز) العظيـم .. لكن الرجل يريد أن يصدّق هذا .. دعيه يصدّق .. تذكرى أن هـذا رأيك منذ البداية .. »

ثم لمس يدها فى حركة خفية كى تصمت ..

عاد السير (دويل) فجلس وهو ينفض سيجاره الغليظ ، ثم قال لـ (هودينى) :

ـ « أريد طريقة أبرهن بها لك على أن الروحانيات حق لا شك فيه .. لهذا رتبت لك أن تحضر جلسة تحضير أرواح ! »

قال (هودينى) فى ضيق :

ـ « (آرثر) .. أرجوك .. أنا لسـت مستعدًا البتـة لقبول هـذا السخف .. »

ـ « لهذا من واجبك أن ترى بعينك .. »

ثم أضاف فى دهشة :

ـ « الغريب أنك أنت السـاحر وأنا المؤلف .. كان علىّ أن أكون متشككًا بينما تؤمن أنت بهذا كله.. »

قال (هودينى) :

ـ « لأنى ساحر .. يصعب أن يصدق ساحر ألاعيب ساحر آخر .. »

هذا حق .. وفكرت (عبير) أنه لو كان يجيد العامية المصريـة لقال : (حبل على حبل ما يبرمش) ..

قال (دويل) :

ـ « سوف نقوم بتحضير روح شخص معروف لديك .. وهكذا ينتفى الخداع تمامًا .. »

ـ « ومن تقترح ؟ »

ـ « ومن غير المرحومة أمك ؟!!! »

★ ★ ★

Seance - 6

قبل جلسة تحضير الأرواح كانت مشاجرة عنيفة بين (هودينى) و(بيس)/(عبير) ..

السبب كما هو واضح أنها تغار من معجباته الشقراوات وهو يغار من الأخ (راينهارت) .. لقد بلغا نقطة اللاعودة حينما يصر كل منهما على استفزاز مشاعر الآخر على سبيل الانتقام، وهذا يجعل الطرف الآخر مصرًا على الانتقام بدوره ..

لكنهما يعملان فى الاستعراض ؛ لذا أجادا رسم الضحكات على الشفاه وهما يغادران فندق (أستوريا) متجهين إلى الشقة التى سيتم فيها تحضير الروح ..

قال لها وهما ينزلان من سيارة الأجرة :

ـ « طبعًا لا أريد ضحكات ساخرة أو غمزات .. الرجل مقتنع بما يفعله وأنا أكره أن أضايقه .. »

ـ « اطمئن .. »

شقة فاخرة أرستقراطية تلك التى اختارها (دويل) لعملية استحضار الروح .. وكان (هودينى) قد أصرّ على أن تتم الجلسة يوم السادس من أغسطس .. يبدو أن هذا التاريخ يروق له ..

الوسيط ـ وهذا أثار ذهولهما ـ هى مسز (دويل) نفسها ! لقد عرفا للمرة الأولى أن السيدة الوقور تملك موهبة الوساطة ..

فى غرفة صغيرة بها منضدة مستديرة جلس الجميع .. إضاءة خافتة جدًا مع موسيقا كلاسية لإضفاء تأثير (موتسارت) ...

نظرت (عبير) إلى (هودينى) فرأته يضغط على عضلات فكيه فى عصبية .. كان مستعدًا للتحدى راغبًا فيه .. لكنها اعترفت لنفسها بأن الجو مفزع وموح .. لو خرج ديناصور من وراء الستار فلن تندهش كثيرًا ..

جلست مدام (دويل) مغمضة العينين، ثم قالت بصوت عال :

ـ « فلنصمت .. »

لم يعد هناك سوى صوت الأنفاس الثقيلة .. سوى صوت الصمت، وللصمت صخب عال يؤذى الأذنين فعلاً .. إنه من أعلى الأصوات عندما تكون متوترًا ..

تشابكت الأيدى على المنضدة ..

إن طريقة استحضار الأرواح بوسيط تختلف عن الطرق المعروفة مثل (الويجا Ouija) وخلافها .. هنا يتكلم الوسيط بصوت الروح أو يبدأ فى كتابة أوراق ..

ـ « يا أم (هودينى) ... نأمرك بأن تلبى نداءنا .. »

قال (هودينى) فى جد لا شك فيه ، لكن (عبير) كانت تعرف أنه يسخر بشكل خفى :

ـ « اسمى (إريك فايس) .. لن تفهم أمى معنى (هودينى) هذا .. »

ـ « ش ش ش ! »

برغم كل شىء قالت السيدة الوقور :

ـ « يا أم (إريك فايس) ... تعالى .. »

وأغمضت عينيها .. وبدأت تهوم برأسها .. فى المعتاد عندما تأتى الروح يسمعون صوتًا ...

كريييك!

لقد تحركت منضدة ! لا شك فى هذا .. منضدة صغيرة جوار النافذة تحركت محدثة صوتًا جمد الدم فى عروق (عبير) ..

من ثم أمسكت مسز (دويل) القلم وبدأت تكتب .. تكتب بسرعة وبلا توقف .. تكتب بعينين مغمضتين .. تكتب كأنها آلة طابعة بشرية .. وفى صمت راح زوجها ينزع الورقة الممتلئة من أمامها ليضع ورقة أخرى ..

قال (هودينى) همسًا :

ـ « ماذا تكتبه ؟ »

قال (دويل) وهو يتأمل الأوراق :

ـ « تجيب عن أسئلتك .. »

ـ « لكننى لم أسأل عن أى شىء ! »

ـ « ش ش ش ! الأرواح تعرف أكثر منك .. »

استمرت الجلسة .. الزمن الذى يمكنك أن تكتب فيه خمسين ورقة فلوسكاب بسرعة جهنمية .. وفى النهاية بدا على السيدة الوقور الإرهاق .. رجع رأسها إلى الوراء وسقط القلم من يدها .. لقد استنفدت وقودها وهو ما يعرفه أى كاتب يسوِّد عشر صفحات بشكل متواصل .. هى سوَّدت خمسين !

قال (دويل) فى وقار :

ـ « شكرًا يا مدام .. يمكنك الانصراف .. »

أخيرًا ساد الهدوء ، وأضاء الأنوار لتعود الحياة إلى هذا المكان الكئيب ..

أشعل سيجارًا ثم طلب من خادم مذعور أن يحضر لهم بعض الشراب .. وقال :

ـ « كما ترى .. هى تجربة ناجحة لا شك فى نجاحها .. عندما تقرأ ما كتبته السيدة فلسوف تدرك أن أمك كانت معنا فعلاً ، وقد خاطبتنا من عالم الغيب .. »

كـان (هـودينى) يطـالع الأوراق فـى اهتمـــام .. يقلب ورقـة تلو الأخرى .. ثم قال شارد الذهن :

ـ « فعلاً .. فعلاً .. هذا مذهل .. »

قال (دويل) :

ـ « إنها أجابت عن الأسئلة التـى كنـت تريـد أن توجههـا لكـن هيبة الموقف جعلتك تنساها .. »

ـ « نعم .. نعم .. »

ثم توقف (هودينى) .. أدركت (عبـير) أنـه يخـوض صراعًـا بين التأدب أمام صديقه العظيم ، والرغبة فى أن يصرخ بما يفكر فيه .. وهو صراع عنيف بالطبع ..

فى النهاية لم يستطع أن يتحمل أكثر .. فقال فى حرج :

ـ « هذه المحاولة ملفقة ! »

نظر له (دويل) نظرة نارية ، وقال :

ـ « ماذا ؟ وبالطبع تتهمنى وزوجتى بالكذب ؟ »

ـ « لا .. لكنى بالتأكيد أتهمكما بالحماس الزائد إلى درجة أنكما وقعتما فريسة الإيحاء والوهم .. ما كتبته السيدة (دويل) كتبتـه لا شعوريًا من عقلهـا الباطـن مستخدمة القليل الذى تعرفه عنى وعن أمى .. »

صب (دويل) لنفسه بعض الشراب وقال فى وقار :

ـ « والدليل ؟ »

قال (هودينى) ، وهو ينهض باحثًا عن قبعته :

ـ « اليوم هو عيد ميلاد والدتى .. كيف لم تعلق على هذا بكلمة واحدة ؟ »

ـ « هل تعتقد أن الأرواح تهتم بأعياد الميلاد .. هل تعتقد أنها تشترى لنفسها كعكة وشموعًا ؟ »

ـ « فقط كنت أتوقع تعليقًا ما فى الأوراق .. لكن لا تعليق .. ثانيًا .. النص كله بالإنجليزية ، ووالدتى لم تكن تتكلم غير المجرية حتى توفاها الله .. »

ضحك (دويل) فى عصبية حتى راح كرشه وشاربه الضخمان يهتزان ، وقال :

ـ « هل للغة قيمة فى عالم الأرواح ... هناك لغة واحدة فقط هى لغة المعنى .. الأفكار .. لا يتعلق الأمر بحصة لغة إنجليزية .. »

أمسك (هودينى) بقبعته ، وقال وهو يشير لـ (عبير) من طرف خفى :

ـ « رأيى يا سير (آرثر) أن هذه تجربة فاشلة .. لكنى لا أوجه لك أى اتهام ، بل لا أجرؤ على التفكير فى شىء كهذا .. سأكون شاكرًا لو سمحت لى بالانصراف .. »

قال (دويل) وعيناه تخرجان شررًا :

ـ « أنت عنيد يا صاحبى .. وهذه ليست مزية كما تظن .. »

ـ « وأنت تصدق ما لا يُصدَّق .. وهذه ليست صفة حميدة كما تعتقد .. »

للحظة بدا أن الرجلين قد بلغا الذروة التى سيليها الاشتباك .. لكن (هودينى) كان يحمل قبعته على كل حال ؛ لذا انحنى فى حركة راقية ، وقال :

ـ « سير (دويل) ... ليدى (دويل) .. »

ثم تأبط ذراع (عبير) ليغادرا المكان ..

7 ـ هادم الأساطير ..

« إن أساس كل العقيدة الروحانية هو أن الروح نسخة أخرى من الجسد ، تشبهه فى كل شىء إلا أنها أكثر شفافية. وفى الأحوال الطبيعية يمتزج هذان بحيث يتوارى الجسم ذو الطبيعة الأرق. إلا أنه فى ظروف معينة من الحياة ينفصل الاثنان ، ويتولى الأخف منهما مهمة الحياة. هكذا عند الموت يتخلى أحد الكيانين عن الآخر ويتركه كأنه شرنقة غادرها محتواها. لقد طلب زميلى د. (كروكس) من السير (جورج ستوكس) سكرتير الجمعية الملكية أحد أشرس أعداء الروحانية أن يأتى لمختبره ليرى القوى النفسية تعمل ، لكنه رفض هذا. ما قيمة العلم بهذه الطريقة ؟! أنا أستطيع أن أعدَّ عشرة علماء بارزين رأوا تجاربنا وصدقوها .. »

قرأ (هودينى) هذه الكلمات التى كتبها (دويل) فى مجلة شهيرة ، ثم قال لـ (عبير) :

ـ « ما معنى هذا الهراء .. الرجل قد جنّ تمامًا .. »

من جديد قالت :

ـ « وماذا يضايقك .. هذا شأنه .. »

قال (هودينى) :

ـ « أنا ساحر . لا أحد يقدر على خداعى .. لقد رأيت كل الخدع الممكنة وأميز كل شىء .. لهذا يثير غيظى أن يؤمن هذا الرجل الذى هو أعظم العقول فى إنجلترا بهذا السخف .. والمصيبة أنه يحاول أن يعطى صبغة علمية لهذه الخرافات .. أسوأ شىء فى العالم أن يحاول المرء إعطاء الخرافات صبغة علمية .. »

ثم أمسك ببعض الصحف البريطانية ، وأشار إلى الأولى ، وقال :

ـ « انظرى ما كتبته صحيفة (صنداى إكسبريس) : هل جن (دويل) .. إن المرء على كل حال لا يبذل جهدًا فى فهم رجل مجنون .. فقط يهز كتفه .. يضحك .. ثم ينسى ، أما جريدة (لندن تايمز) المهذبة ، فوصفت الموقف بأنه سذاجة لا تُصدَق .. »

ثم التمعت عيناه فى حماس ، وقال :

ـ « خطرت لى فكرة رائعة ! »

★ ★ ★

هذا هو هادم الأساطير الحقيقى ..

(هارى هودينى) العظيم يعلن أنه مستعد لفضح أى شخص يدعى أن لديه اتصالاً بالأرواح أو أن لديه قوى خارقة ..

نشرت الصحف هذا الخبر مع صورة (هودينى) يبتسم ابتسامته القاسية الساخرة قليلاً ، وهكذا اتصلت به الجمعية الروحية الأمريكية ..

قال له الرئيس :

ـ « لقد نشرنا إعلانًا يقدم جائزة مالية كبرى لمن يبرهن عن أنه يملك قوى نفسية خارقة .. قراءة أفكار .. تحريك عن بعد .. ثنى معدن .. إشعال النار فكريًا .. إلخ .. المشكلة هى أن هناك آلاف المتقدمين لنيل الجائزة .. ونحن لا نعرف .. هل تحول كل سكان العالم إلى ذوى مواهب خارقة ؟! »

قال (هودينى) باسمًا :

ـ « هناك شخص واحد لا يملك موهبة خارقة هو أنا ! أنا مجرد مشعوذ بسيط يستعمل خفة اليد .. وسوف أبرهن لكم على أن كل هؤلاء نصابون .. »

بالفعل راح (هودينى) يسافر هنا وهناك يحضر جلسات تحضير أرواح .. يحضر عمليات تحريك عن بعد .. يسمع نبوءات وقارئى أفكار .. أحيانًا كان يتخفى وأحيانًا لا ..

وفى كل مرة يمد يده ليكشف عن أسلاك كهربية مخفاة تقود إلى مكبر صوت .. أو يكتشف العلامات الخفية على ظهر البطاقات التى يتنبأ الوسيط بمحتواها .. أو يجد المخبأ الذى تخرج منه مادة (الإكتوبلازم) التى يزعمون أنها تخرج من النشاط الروحى ..

فى كل مرة ينتصر .. وفى كل مرة يقدم التفسير العلمى لهذه الظاهرة ، والحقيقة أنه كان يمهد الطريق لجيل كامل من هادمى الأساطير جاء من بعده ؛ أشهرهم اليوم (جيمس راندى Randi) و(سوركار Sorcar) .. وكتب كتابًا شهيرا اسمه (ساحر بين الأرواح) يفضح فيه أساليب هؤلاء ..

لقد صار (هودينى) مرعبًا لكل هؤلاء النصابين ..

وبفضله لم يفز بجائزة الجمعية الروحانية واحد حتى اليوم ، وقد قال له الرئيس :

ـ « من الغريب أننى أشعر بسرور لهذا ، لكن الحقيقة أنه من دونك لخدعنا ألف مرة .. »

قال (هودينى) باسمًا :

ـ « من الصعب أن تلعب لعبة سحرية مع ساحر ! »

كان خصومه يتزايدون يومًا بعد يوم .. وكانت الحيلة السهلة التى وجدوها .. الحيلة التى لا تفشل أبدًا هى أن زعموا أنه ملحد يعادى الدين .. كأنه يجب أن يؤمن بخدعهم حتى لا يكون ملحدًا ، وكأنهم هم الدين نفسه ..

هكذا وقف أمام الصحفيين يقول :

ـ « أنا لا أهاجم الدين فأنا لا أعتبر تحضير الأرواح جزءًا منه .. لكن هذا الشىء المسمى وساطة روحانية حيث يتصل وسيط بالموتى هو كذبة من البداية للنهاية . هناك نوعان من الوسطاء : أولئك الذين اختلت عقولهم ويجب أن يوضعوا تحت الملاحظة الطبية ، وهؤلاء الذين يكذبون عمدًا . لن أثق بشهادة وسيط روحى أبدًا حتى وهو تحت القسم .. فالحنث باليمين لا يمثل لهم مشكلة . فى كل عام تسرق ملايين الدولارات فى أمريكا والحكومة لا تهتم بذلك لأنها تعتبر هذه الأمور مسائل دينية .. »

كان يكرههم من سويداء قلبه .. هؤلاء الذين يستغلون لهفة الأرامل والثكالى واليتامى كى يجمعوا المال ..

وكانت (عبير) تراقب نشاطه وتتساءل : لماذا لا يشعر هؤلاء المنشغلون بأمر الملايين بأوجاع من هم قريبون منهم .. لماذا لا يشعر بها ويهملها بهذا الشكل ..

كانت تعرف هذه القصة جيدًا .. إن زوجات المصلحين الاجتماعيين يكن تعيسات دائمًا، وكم من كاتب لعمود شهير فى جريدة على غرار: (اعترفوا لى) و(لمشكلتك حل) هو أتعس الناس فى حياته الخاصة، وبعضهم تزوج عدة مرات .. فاقد الشىء لا يعطيه فى كل الأحوال باستثناء حالة النصح هذه ..

كأن هؤلاء قذائف بعيدة المدى لا تصلح إلا لأهداف بعيدة .. بينما إذا صوِّبت على أهداف قريبة انفجرت فى وجه حاملها ..

* * *

فى الآن ذاته يواصل (دويل) دعوته المتحمسة لتحضير الأرواح ..

إنه يجوب العالم يخبر كل شخص أن هذا هو السبيل الوحيد للاتصال بالأعزاء الذين رحلوا ..

ـ « كل الدلائل (العلمية) تقول إن هذا صحيح .. أمس رأيتم حوريات (كوتنجلى) .. وغدًا ترون أرواح أعزائكم .. »

وكان أغرب موقف ممكن هو عندما زار أستراليا فعرف أن قسًا بروتستانتيًا أمر بإقامة صلاة يدعو عليه فيها (لأنه يدعو لاستبدال ديانة الروحانيات بدين الرب) .. وقد دعا القس فى

حرارة أن تغرق السفينة التى تحمل (دويل) قبل أن تبلغ سواحل أستراليا ..

لكن (دويل) كان مسلحًا بسمعته كأديب كبير عظيم، بالضبط كما كان (هودينى) مسلحًا بسمعته كساحر موهوب .. فى الحالتين يمكن أن تصغى وتكون على استعداد لأن تصدق ..

فى هذا الوقت جاءت قضية الأخوات (فوكس) لتضع بعض النقاط على الحروف ..

* * *

8 ـ زنزانة التعذيب ..

الأخوات (فوكس) ثلاث أخوات أمريكيات عانسات ..

ولأنهن عانسات فهن من الطراز المتطهر (البيوريتانى) العصابى إياه الذى يذكرنا بالأخوات (برونتى) فى إنجلترا .. يكرهن العالم ويكرهن أنفسهن ، وهن يدارين الإحباط العاطفى بالكثير من التدين السطحى .. شفاه رفيعة صارمة ونظرات حادة وثياب سود وصمت مريب ..

كانت شهرة الأخوات قد طبقت الآفاق ..

الحكاية هى أنهن يستطعن الاتصال بالأرواح .. فقط عليك أن تذهب لكوخهن وتجلس هناك ، ثم تطلب الروح التى تريد الكلام معها ..

وجه أسئلتك إلى الروح ، وسوف تردُ الروح عن طريق الطرقات .. طرقة واحدة معناها نعم .. طرقتان معناها لا .. أحياناً يمكن أن تجرى محادثة كاملة عن طريق تلاوة الأبجدية كاملة إلى أن تسمع دقة .. هكذا تنتقى هذا الحرف .. ومع تراكم الحروف تكون جملاً كاملة ... هذه طريقة (التبتولوجى) typtology كما أسماها عالم الروحانيات (ألن كاردك) .. وهى طريقة تستغرق وقتاً يمكنك

تخيله ، إذا كان الحرف الواحد يحتاج إلى تلاوة الأبجدية كلها ببطء ، فكم من الوقت تستغرقه عدة جمل ؟!

لقد اشتهرت الأخوات .. لكن قبل أن يشتهرن قام العديد من العلماء بزيارة كوخهن .. بحثوا فى كل مكان وراقبوا كل شىء .. لا يوجد دليل على التلفيق .. عندما تأتى الدقات فهى لا تأتى من مكان بعينه وإنما تأتى من كل مكان ولا مكان .. باختصار هى قادمة من عالم الأرواح ..

جنَّ جنون (دويل) لدى سماع هذه القصة ، وقد زار الأخوات وكتب عنهن عدة مقالات ..

قال (هوديني) حينما سمع عن الموضوع :

ـ « يجب أن أزور هذه العصابة عما قريب .. لكن لا وقت لأن لدى عرضاً مهماً غداً .. »

ـ « هذا أفضل .. »

قالتها (عبير) فى ملل ..

* * *

إن لم تكن قد شاهدت عروض (هوديني) فها هى ذى (فانتازيا) تتيح لك الفرصة ..

فقط تعال مبكرًا لتجد لقدمك موطئًا ، ولعينك مكانًا وسط هذا الزحام ..

فى البداية يصل رجال الشرطة ليصنعوا ما يشبه (الكردون) لأن المعجبين يشكلون ما يشبه المظاهرة .. الكثير من التدافع والعنف واستعمال العصى ..

بعد قليل يصل رجال الصحافة .. كلهم فى هذا الزمن يخرجون من مصنع واحد بقبعاتهم التى يضعون فيها بطاقة الصحيفة ، وكاميراتهم العملاقة الثقيلة ، ولفافات التبغ تتدلى من أركان فمهم .. عندما يفرغون من المقال سيحملونه إلى رئيسهم الذى يضع على جبهته كابًا أسود يقى العينين من النور ، ويضع كمين أسودين مستعارين حول كمى قميصه ..

كل هذا تم إخراجه بعناية من قبل مدير الأعمال شديد الكفاءة الذى ينال 10٪ من كل شىء .. وهو يعرف أهمية (لقطة رد الفعل) فى صناعة النجم .. لا قيمة لأى نجم سينمائى أو كروى أو غنائى ما لم نر أولاً الجنون فى عيون المعجبين به ..

بعد هذا تصل سيارة الساحر الفاخرة المكشوفة ، وهو يقف ملوحًا بذراعيه كأنه زعيم يخترق شوارع عاصمة مفتوحة .. (الروب) يتطاير من خلفه والسيجار فى فمه .. و(عبير) تقف

جواره مؤدية حركات سخيفة لكن الغرض منها أن يركز الناس بصرهم على (هودينى) ..

كان قد صارحها ذات مرة بأن جمال الفتاة التى تقف مع الساحر يصلح لأغراض أخرى .. إنها تشتت الجمهور وتلفت نظره بحيث يستطيع الساحر أن يخرج البطاقة من كمه أو الأرنب من قبعته .. النساء يسرقن الكاميرا من الرجال ، والأطفال يسرقون الكاميرا من النساء ، والحيوانات تسرق الكاميرا من الأطفال .. هذا معروف من قديم ..

يتم تقييد (هودينى) والسيجار فى فمه بالسلاسل ، ثم يربطون ساقيه معًا .. يتأكد رجلان من أنه مقيد بعناية ولا يلاحظ أحد طبعًا أنه نفش عضلاته وأبعد ذراعيه عن جسده أثناء التقييد ..

لعبة اليوم اسمها (زنزانة تعذيب الماء الصينية) .. إنها من ابتكاره فلا أعتقد أن الصينيين فكروا فى شىء كهذا ..

يقوم الرجال بتعليق (هودينى) من قدميه ثم يدلونه فى شىء يشبه كابينة الهاتف .. فقط هى محكمة الغلق .. الزجاج يتيح للناس رؤية ما يحدث بالداخل كما هى العادة فى عروض هذا الرجل ..

إنه معلق كالثريا من أعلى الكابينة ورأسه يرتفع عن الأرض بمسافة لا بأس بها ..

الآن يصدر مدير الأعمال أمره للرجال المسئولين عن ملء الكابينة ، فيبدأ هؤلاء فى ضخ الماء داخلها ..

الماء يرتفع .. ويرتفع ..

الآن صار الماء عند خصر (هودينـى) .. أى أن رأسه صار تحت مستوى الماء منذ زمن ..

إنه يحـاول التملُّص .. عضلاته القوية تسترخى لتنزلق السلسلة .. تراه (عبير) يحرك يده المقيدة خلف ظهره ، فتعرف أن هذه هى اللحظة التى يفك فيها الأصفاد عن ساعديه ..

لقد تحررت يداه .. يتكور حول نفسه ويمد يده إلى قدمه ..

فجأة يبدو أن هناك شيئًا ليس على ما يرام ..

هى رأت النظرة على وجهه قبل أى واحد آخر .. إنه زوجها وهى تعرف تعبيرات وجهه سواء أكان مقلوبًا أم لا .. خداه منتفخان بالهواء ، وهو يحاول الوصول إلى القفل ..

إنه مذعور .. لا شك فى هذا ..

صرخت فى مدير الأعمال :

ـ « هناك خطأ ! أوقف العرض ! »

قال وهو يرسم ابتسامة متكلفة :

ـ « لا يوجد خطأ .. لابد أن هذا الذعر جزء من أدائه التمثيلى .. (هودينى) لا يفشل كما تعرفين .. »

نظرت إلى المشهد .. لقد مرت ثلاث دقائق .. هى تعرف أنه يستطيع أن يحبس الهواء فى صدره ثلاث دقائق لكنه ينفجر بعد هذا ..

ـ « قلت لك أوقف العرض ! »

قال فى برود :

ـ « لا يمكن .. إن تعليماته صارمة بهذا الصدد .. مهما حدث لا تتدخل .. كأنه الملاكم الذى يحذر مدربه من إلقاء المنشفة على الحلبة مهما كانت الإصابـ ... »

هنا جن جنونها ..

ووسط زحام الناس ورجال الشرطة انحنت لتلتقط قالبًا من القرميد ، واندفعت إلى الكابينة قبل أن يمنعها أحد ، وهوت بكل قوتها على الزجاج ..

إنه زجاج قوى لم يتهشم من أول مرة .. طبعًا .. ما دام سيتحمل كل ضغط الماء هذا ..

هوت بقوة أكبر فحدث شرخ ..

وسرعان ما اندفع الماء خارجًا من الكابينة ..

صرخ الناس وتصاعدت الشهقات .. بينما فرغت الكابينة من محتواها ، ورأت (عبير) رأس زوجها فوق مستوى الماء ، وهو يعبُّ الهواء فى جوع ..

أخيرًا قام الرجال بفك قيود (هودينى) فانقلب بحركة بهلوانية خارجًا من الكابينة ..

وقف وسط الناس والزحام ورجال الشرطة .. وقف يستجمع أنفاسه ثم ركض نحو (عبير) وهتف :

ـ « ماذا فعلت يا حمقاء ؟! »

ودفعها بكفه إلى الوراء فارتطمت بالجدار وعاد يصيح :

ـ « لقد أفسدت أجمل لعبة لى ! كان عليك أن تبقى بالدار ما دامت أعصابك بهذا الوهن ، وما دمت بهذا الغباء ! »

انفجرت فلاشات الصحفيين .. هذه قصة أجمل من قصة نجاح (هودينى) .. لقد اعتاد القارئ أخبار النجاح فلسوف يثير الفشل اهتمامه أكثر ..

(هودينى) يفشل بسبب تسرُّع زوجته .. هل ينفصل الزوجان ؟

ستكون هذه عناوين الصحف غدًا ولسوف تحقق أعلى مبيعات ..

انفجرت (عبير) فى البكاء بينما (هودينى) يجفف نفسه من الماء ، ويصيح فى الواقفين :

ـ « سوف نكررها وسوف تكون ناجحة .. (هودينى) لا يفشل أبدًا .. »

ثم أمسك بذراعها واقتادها بعيدًا عن الواقفين .. وقال لها هامسًا :

ـ « آسف .. اضطررت لهذا لكنك أنقذت حياتى فعلاً .. كان لابد لى من شماعة أعلق عليها هذا الفشل .. »

نظرت له غير مصدقة .. لقد أهانها أمام الناس أجمعين والآن يعتذر لها فى ركن قصى ..

قال لها فى خطورة :

ـ « القفل الخاص بقيد القدمين .. المفتاح لم يكن هو ! »

ـ « ماذا تعنى ؟ أنت أخطأت المفتاح إذن ؟ »

ـ « بالطبع لا .. (هودينى) لا يخطئ .. لقد تم استبدال المفتاح ! »

* * *

9- ضربة قاصمة..

النفس البشرية غريبة الأطوار بحق ..

لو أنك طلبت من جهاز حاسب آلى أن يحلل الدوافع والسلوكيات التى يبديها البشر ؛ لتوصل إلى استنتاج منطقى هو أن جل البشر مخابيل ..

لأسباب كهذه يعترف بعض السفاحين على أنفسهم ، بدون أى مبرر وبدون أن يتهددهم رجال الشرطة .. فقط لأنهم معجبون ببراعتهم ، ويمقتون أن يموتوا دون أن يعرف أحد كم كانوا مهرة ..

وهكذا جاء اليوم الذى أعلنت فيه الأخت الكبرى من الأخوات (فوكس) اسمها (مارجريت) أن لديها ما تقوله للصحافة ..

اجتمع الناس والصحفيون فى المسرح الكبير الذى اختارته ، وهم يتساءلون عما لديها لتقوله ..

جلس الجميع صامتين حابسين الأنفاس على حين صعدت السيدة التى تذكرك بغربان البين إلى المنصة .

قالت للجالسين :

ـ « الآن تسمعون صوت الدقات الشبحية .. »

وحبس الجميع أنفاسهم وهم يسمعون تلك الدقات المخيفة القادمة من لا مكان وكل مكان .. صوت رهيب جعل النساء يرتجفن والرجال يتوترون .. صدى يتردد .. رتيبًا كأنه لحن القدر ..

كليك .. كليك .. كليك !

رفعت المرأة رأسها ، وقالت :

ـ « هذه الأصوات لا علاقة لها بالأشباح .. لا علاقة لها بالعالم الآخر .. أنا التى أحدث هذه الأصوات ! »

تصاعدت الهمسات ، وهبّ أحد العلماء الجالسين يسألها :

ـ « كيف .. لسنا أطفالاً وقد تأكدنا من عدم وجود خدعة ما فى داركم ؟! »

مدت المرأة قدمها خارج المنصة ونزعت حذاءها لتكشف عن أقذر قدمين قتك بهما النقرس منذ دهور .. وحركت الأصابع فانبعث صوت الدقات الغريبة !

قالت المرأة باسمة :

ـ « فتشتم كل شىء لكنكم لم تفتشوا حذائى ! »

ثم أضافت أمام الجمع المذهول :

ـ « كل موضوع الوساطة الروحية هذا نصب في نصب .. لكنه نصب على أعلى طراز ويحتاج إلى تدريب شاق ! » .

هب رئيس الجمعية الروحانية الذى كان وسط الحضور يصيح :

ـ « حتى لو كان هذا ما قالته فإنها تكذب ! لقد راقبت أنا ورجال لا يؤيدون إلا الحقيقة اتصالها بالأرواح، ونؤكد أن خداعنا كان مستحيلاً ! » .

قالت المرأة فى هدوء كأنها تنصح طفلاً :

ـ « سيدى .. لقد اعترفت بكل شىء فلا داعى للمكابرة ! »

★ ★ ★

برغم ضيقه الشديد من الحادث الأخير فإن (هودينى) لم يخف سعادته بهذه الضربة القوية لعلم الروحانيات، وقد راح يضحك ويضرب الأريكة بيده .. وقال لـ (عبير) :

ـ « اعترفت ! أعتقد أننى لو حضرت هذه الجلسات لخمنت السر ! على كل حال فليصمت كل معتوه يتحدث عن (علم) تحضير الأرواح ! لقد شهد شاهد من أهلها ! »

ثم لوّح بجريدة، وقال :

ـ « من بريطانيا يأتينا تعليق سير (كونان دويل) .. هل تعرفين ما يقول ؟ يقول : لا يهمنى ما تقوله هى ولا أى واحد آخر .. أنا أعرف جيدًا أننا قادرون على الاتصال بالعالم الخفى ! العجوز مصرٌّ على المضى فى غيِّه وفى كل مرة يبرهن على أنه خاسر سيئ لا يتمتع بروح رياضية ! »

قالت (عبير) :

ـ « إنه لا يقاتل من أجل رأيه .. بل يقاتل من أجل أمله الوحيد فى الحياة .. أن يلقى ابنه بعد الموت .. »

قال (هودينى) :

ـ « أنا لست متدينًا ولا أعرف ما سنجده بعد الموت، لكنه بالتأكيد شىء يختلف عن كل ما يزعمه هؤلاء النصابون .. »

لكن الحقيقة التى تعلمتها (عبير) من هذا الموقف هى أن الإنسان لا يقتنع إلا بما يريد الاقتناع به .. مهما كان ذكيًا أو عبقريًا فهو يحتفظ بجزء من عقله فى معزل عن المنطق، ومهما جئت له بأدلة فإنه لا يقتنع .. لولا هذا لما وجد علماء (طبيعة نووية) هنود يبكون فى إيمان أمام صور (كالى) ويركعون أمام الأبقار ..

أى دليل يمكن أن تقدمه لعلماء الروحانيات أكثر من اعتراف (مارجريت سكوت) نفسها ؟! لكنهم يؤكدون أنها تكذب عندما تقول إنها كانت تكذب ! وما مصلحتها .. ولأية غاية .. هذه أشياء لا تجد سبيلاً إلى جزء العقل الذى يتعامل مع الخوارق ..

بالطبع حدثت هذه القصة فى وقت متقدم من القرن العشرين ؛ لذا لم يسمع هؤلاء اعترافًا آخر هو اعتراف إحدى الفتاتين اللتين ظهرتا مع حوريات (كوتنجلى) فى السبعينات .. كانت قد صارت عجوزًا ، وقالت فى إحدى الشبكات التلفزيونية إنها وزميلتها كانتا تلعبان ، وإن القصة كلها ملفقة ..

على كل حال لا مشكلة هنالك .. لو تم الاعتراف فى زمن (دويل) لقال إن الفتاة هى الأخرى كاذبة ..

* * *

فى هذا الوقت استمر (هوديني) فى ممارسة إيقاع حيله المثير ..

اللعبتان الجديدتان اللتان قدمهما هما أن يتم حبسه فى كيس ورقى تمّ إغلاقه بعناية ، ثم يخرج من الكيس دون أن يمزقه ..

اللعبة الثانية الفريدة من نوعها هى يوم وقف على المسرح وراحت (عبير) تناوله إبرًا .. كلما تناول إبرة ابتلعها وهو يردد العبارة الشهيرة التى تخلى مسئوليته :

ـ « هذه الألعاب خطرة ! لا تجربوها فى البيت ! »

فى النهاية كان قد ابتلع ثلاثين إبرة ..

ناولته (عبير) بكرة الخيط ، فأخرج طرف الخيط وراح يزدرده بلا توقف كأنه مصنوع من المكرونة ..

فى النهاية غاب الخيط كله فى جوفه باستثناء طرف صغير منه ، فمد يده يشد الخيط من أحشائه ، ومع الخيط خرجت الإبر كلها وقد مر الخيط خلال عيونها ! أى أنه (لضمها) فى معدته ـ كما نقول بالعامية ـ .

لوح بالخيط الذى تتدلى منه الإبر على شكل راية ، وصاح :

ـ « سيداتى سادتى ! حيلة أخرى من (هوديني) العظيم ! »

صفق الناس فى جنون ..

وتذكرت (عبير) آخر خطاب تلقاه (هوديني) من (دويل) يقول فيه الأخير :

ـ « أنت تمتلك موهبة خارقة للطبيعة هى التى تؤدى لنجاح ألعابك فى كل مرة .. أنت على اتصال بعالم الأرواح لكنك لاتعرف هذا ! »

قرأ (هودينى) الخطاب ، وقال فى ملل :

ـ « هذا الرجل مصرٌ على أننى ظاهرة روحانية وأجهل هذا ! كيف أثبت لـه أننى مجرد حاوٍ خفيف اليد ... إن هذا يهيننى ويجردنى من كل براعة أو مهارة ! »

فى هذه النقطة كان شجاعًا .. وهو المشعوذ الوحيد على قدر علمى الذى شرح للناس الكثير من حيله فى كتاب كامل .. لكن (دويل) كان قد بلغ مرحلة الشيخوخة ؛ فتصلب الشرايين الذى يؤدى إلى تصلب الآراء ..

* * *

10 ـ عـرض خاص ..

لا جديد تحت الشمس ..

لقد قام (هودينى) بمحاولة هرب كبرى وهو يمشى على حبل فوق شلالات نياجرا ، ثم قدم فقرته الأشهر بالهرب من زجاجة لبن بحجم التابوت .. زجاجة لبن مليئة باللبن ومغلقة بعناية .. هذه المحاولة التى قتلت سحرة كثيرين غرقًا .. إن الغرق فى اللبن ميتة شنيعة لكنها لا تخلو من جانب مضحك مرير .

(هودينى) لا يفشل ..

إنه الأفضل ..

* * *

نحن الآن عام 1920 ..

(هودينى) يواصل انتصاراته ويهدم أساطير السحرة ، بينما يجوب (كونان دويل) العالم يؤكد للناس أن الأرواح حولنا ، وأن هناك أناسًا حباهم الله القدرة على الاتصال بها ..

الصديقان اللدودان .. الصديقان اللذان اختلفا فى كل شىء تقريبًا .. أحدهما ساذج كطفل والآخر حذر حويط كالثعبان .. الأديب المفكر يؤمن بالسحر ، والساحر المحترف يؤمن بأن السحر هراء ..

هذا هو الوضع تقريبًا عندما تلقى (دويل) دعوة من صديقه الأمريكى لحضور مؤتمر السحرة الأمريكيين ..

جاء (دويل) إلى الولايات .. واستقبله (هودينى) مرحبًا ..

لقد تقدم الأشيب فى السن وشاب شعره .. انحنت قامته الفارعة وبدا بحق فى آخر أيامه ..

قالت (عبير) لنفسها إن هذا سبب وجيه يجعله يفكر فى الروحانيات طيلة اليوم .. عندما توشك على مغادرة وطنك فأنت تقضى الوقت فى قراءة كل شىء عن وطنك الجديد .. تفكر فيه وتسأل عنه ..

لقد ذكرها (دويل) بـ (جلجاميش) الذى خاضت معه مغامرة كبرى من قبل .. كلاهما تضنيه فكرة ما ينتظره بعد الموت .. كلاهما يحلم بالخلود .. (دويل) فقد ابنه و(جلجاميش) فقد صديقه (إنجيدو) ... (دويل) طلب مشورة الوسطاء و(جلجاميش) طلب مشورة (أوتنابشتيم) ..

صافح (دويل) صديقه ، وقال :

ـ « أنت تزداد شبابًا .. »

ـ « وأنت تزداد حكمة ! »

ـ « أرجو ألا تكون متضايقًا منى بسبب موقف جلسة تحضير الأرواح تلك .. »

ـ « كنت على وشك أن أطلب منك الشىء ذاته .. نحن صديقان حميمان .. فقط لا يتبنى واحد منا وجهة نظر الآخر .. »

قال (دويل) وهو يشعل سيجاره :

ـ « أتابع انتصاراتك المتوالية ، وما زلت مصرًا على أنك ساحر حقيقى وعلى أن قوى خارقة هى التى تساعدك فى استعراضاتك .. »

قال (هودينى) فى صبر :

ـ « سير (آرثر) .. الساحر الحقيقى لن يقضى وقته فى أداء عروض خطرة على المسرح من أجل بعض الدولارات .. الساحر الحقيقى سوف يحكم العالم .. وبما أن هذا لم يحدث فإن لنا أن نفترض باطمئنان أن السحر لا وجود له .. »

وقبل أن يعلّق الكاتب الكبير ، سأله (هودينى) عن مكان إقامته ..

ـ « فى نفس الفندق طبعًا .. »

ـ « سوف أمرُّ عليك فى السابعة مساء لنذهب إلى الحفل فى فندق (ماكالبين) .. »

ثم أضاف فى حذر :

ـ « تذكر .. هذا ليس حفلاً للسحرة بل هو حفل للمشعوذين مثلى .. أولئك الذين يخرجون أرانب من القبعات ويشطرون المرأة إلى نصفين بالمنشار .. »

ـ « سأتذكر هذا .. »

وافترق الصديقان على موعد هذه الليلة ..

★ ★ ★

كانت قاعة الاحتفالات فى الفندق مزدحمة إلى حد لا يوصف .. لكن الأغرب كان عينات البشر المجتمعين هناك .. كلهم غريبو الأطوار Weirdos كما يصفهم التعبير الغربى .. هناك من حلق شعر رأسه بالكامل فلم يترك إلا خصلة تذكرك بالهنود (الموهيكان) ، وهناك من أوصل سالفتيه بشاربه كأنه الإمبراطور (غليوم) الأول .. وهناك من لبس مثل (بونابرت) .. هناك من لبس عباءة دراكيولا السوداء المبطنة بالأحمر .. النساء كن أكثر غرابة .. كل واحدة تحاول أن تبدو كجنّية أو مصاصة دماء ..

وسط هذا الجو الشاذ بدا (هودينى) هو الأعقل ..

ظهر مقدم الحفل وهو يلوح بيده كأنه نجم ، ثم صاح :

ـ « الآن نرى أغرب عروض السحرة الأمريكيين التى أذهلت العالم .. »

صعد أول السحرة إلى المسرح ومعه مساعدته الحسناء .. كانت فقرته ـ ببساطة غير مخلّة ـ عبارة عن قطع رأسها بالسيف ثم وضعه على حامل خشبى .. يمكن أن تمرر يدك حول الحامل لتتأكد من أنه لا يخفى مرآة .. واضح أن الفقرة كانت جيدة لأن هؤلاء المحترفين صفقوا بحرارة ..

الفقرة الثانية كانت .. ولكن لماذا أصف كل شىء بالتفصيل .. كان العرض ككل شبيهًا بما قام به سحرة فرعون أمام سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ كل واحد يحاول أن يبهر زملاءه ، حتى توقعت (عبير) أن يلقوا بعصيّهم لتتحول إلى ثعابين ..

صعد (هودينى) إلى المسرح وكرر فقرة ابتلاع الخيط والإبر .. تلك الفقرة التى لم يستطع أى ساحر أن يعرف كيف تتم ..

ثم صاح مقدم الحفل :

ـ « من الغريب أن ينضم لنا الأديب الكبير السير (آرثر كونان دويل) ... لم نعرف من قبل أنه ساحر لكنه اليوم يقدم لنا فقرة عجيبة ، ولن نندهش كثيرًا لو تذكرنا أنه أهم مشجعى علم الروحانيات .. »

تبادلت (عبير) و(هودينى) النظرات .. هذا لم يخطر ببالهما قط .. للمرة الأولى يتخلى (دويل) عن دور المشاهد المصدق لكل ما يراه ، ويشارك ..

لكن الرجل الضخم صعد إلى المسرح ولوح بعصاه ..

على الفور تم نصب شاشة بيضاء كبيرة ، وتم إعداد جهاز عرض سينمائى .. ثم ساد الظلام القاعة فلم تعد ترى سوى اللهفة والإثارة فى العيون ..

قال (دويل) فى وقار :

ـ « أنتم تعرفون اهتمامى بعلم الروحانيات برغم أن بعضكم هنا لن يتحمس لهذا الاهتمام .. »

هذه الكلمة موجهة لـ (هودينى) طبعًا ، وقد فهم البعض هذا وأصدر ضحكة خافتة ، على حين أردف الأديب الكبير :

ـ « ما تعلمته مؤخرًا هو التصوير النفسى .. إنه علم جديد مذهل .. عن طريق هذا العلم يمكن للوسيط أن ينقل إلى الكاميرا أفكاره وعواطفه .. هذه الأفكار والعواطف تعطى صورًا مذهلة ، وهذا هو ما سنراه الآن .. »

وبدأ الشريط السينمائى يدور ، وشعر الجميع بحالة التوتر اللذيذة التى تسبق ظهور الصور على الشاشة والتى يعرفها عشاق السينما .. لحظة ظهور الحلم .. لحظة الخروج من ظلام الرحم إلى النور ..

قال (دويل) :

ـ « هذه الصور ليست خارقة للطبيعة .. بل هى سابقة للطبيعة .. أى أن الحواس العادية لا تدركها .. »

وشهق الناس وهم يرون على الشاشة وحشًا مجنحًا .. سحلية عملاقة ذات جناحين تطارد رجلا وتوشك على الفتك به ... ثم صرخوا إذ رأوا (برونتوساورس) يخرج رأسه الطويل من بركة ماء .. ورأوا (تى ركس) يحجل على ساقيه مطاردًا فريسة مذعورة بين الأشجار ..

صرخت النساء ..

كانت السينما اختراعًا وليدًا ، وكان الناس يؤمنون أن كل شىء يظهر على الشاشة حقيقى ؛ لذا أثارت هذه الصور هلعهم فعلاً ..

البعض تدافع نحو الباب .. والبعض راح يهدئ الجالسين ..

وسمعت (عبير) (هودينى) يهمس :

ـ « مستحيل .. هناك سر وسوف أفهمه .. »

بالطبع لم تر هى أية غرابة فى هذا الذى تراه .. لقد رأت فيلم (حديقة العصر الجوراسى) وتعرف أية أحلام يمكن تقديمها على الشاشة ، لكن هؤلاء القوم لم يروا شيئًا كهذا ..

جو عام من الرعب والهلع ، قطعه (دويل) بضحكة مجلجلة من القلب ..

عندما يضحك (دويل) من قلبه فأنت ترى بوضوح الطفل المختبئ خلف هذا الشارب العملاق ..

قال للحاضرين :

ـ « هذه يا سادة ليست لقطات من الحلم ، لكنها لقطات من فيلم روائى فى طريقه إلى دور العرض .. إنه مأخوذ عن روايتى (العالم المفقود) ... »

صاح (هودينى) محتجًا :

ـ « لكن لا أحد يستطيع تصوير ديناصورات ! »

ـ « هذه لمسة السحر .. لمسة العبقرى (ويليس أوبرايان Willis O'Brien) ساحر المؤثرات الخاصة الذى قام بتحريك هذه النماذج بطريقة ابتكرها هو ، اسمها (إيقاف الكادر Stop motion) .. ومن الواضح أنه بارع جدًا لأنه استطاع أن يؤثر فى مجموعة من السحرة المحترفين .. »

تصاعدت الشهقات ..

ونزل (دويل) من المسرح سعيدًا كأنه طفل شقى فرغ من عمل مقلب فى رفاقه ..

لقد كان هذا انتقامًا صغيرًا أعده لـ (هودينى) ... فحتى هذا المشعوذ البارع يمكن أن ينخدع ، وليس (دويل) هو الساذج الوحيد ..

وفى أذنها همس (هودينى) :

ـ « لم أدر من قبل ثراء إمكانيات هذا الاختراع المدعو (السينما) .. أعتقد أننى سأدرس الموضوع بدقة أكثر .. »

وبالفعل فى الأيام التالية تعمق (هودينى) فى الأمر إلى درجة أنه أنشأ شركة إنتاج سينمائية تخصصت فى تصوير أعماله السحرية ..

11ـ ظلال غيرة ..

من جديد جلس الأصدقاء على العشاء يلتهمون تلك الأشياء التى لا تفهم (عبير) كنهها .. فقط تفهم الفكرة العامة .. مثلاً هذا نوع من المعجنات .. هذا نوع من الخضر .. هذا نوع من اللحوم ..

لم ينته (دويل) بعد من الضحك ولم يجفَّ الدمع من عينيه ..

قال لـ (هودينى) :

ـ « الحق إن المشهد كان مضحكًا .. يذكرنى بمشهد من الرواية ذاتها ، عندما وقف برفيسور (تشالنجر) يحكى مغامراته لعلماء لندن المتحذلقين .. ثم إنه فتح صندوقًا فطار منه (تيروداكتيل) كامل حى محلقًا فى سماء القاعة .. هكذا صرخوا وراحوا يتدافعون نحو الباب .. »

التهم الساحر ما أمامه من طعام فى رشاقة ، وقال :

ـ « أجد تناقضًا غريبًا بين شخصيتك وشخصية (هولمز) ... أنت تصدق كل شىء ببساطة و(هولمز) ذو عقلية نقدية لا تأخذ شيئًا على علاته .. »

قال (دويل) فى استرخاء :

ـ « (هولمز) ليس قريبًا من شخصيتى .. إنه على عكسى تمامًا ، وهو أقرب إلى أستاذ لى فى كلية الطب .. لكن رأيى أن (هولمز) يؤمن بعالم الأرواح مثلى تمامًا .. »

ثم نظر إلى (هودينى) مفكرًا ، وقال :

ـ « فى الحقيقة أكره أن أراك متعصبًا جدب الخيال إلى هذا الحد .. لكنى أنصحك أن تتريث .. إن عالم الروحانيات عميق وصعب ولا يؤخذ بهذه البساطة .. »

ـ « النصابون يجب أن يؤخذوا ببساطة .. إنهم نصابون وكفى .. »

من جديد ساد الصمت .. وفكرت (عبير) فى أن أحد الرجلين يدبّر مقلبًا للآخر ..

* * *

خرج (هودينى) من المسرح متأبطًا ذراع تلك الشقراء التى قيل إنها ممثلة تتحسس طريقها نحو الشهرة .. وعلى الباب همست له الشقراء بشىء ما ، وقربت شفتيها الحمراوين من أذنه ليصل الهمس بدقة ..

شاء حظ (عبير) أن تكون على باب المسرح فى هذه اللحظة بالذات ، تنتظر زوجها الذى ضاع فى الزحام ..

لشد ما شعرت بحرج وهى ترى هذا المشهد ، وتمنت ألا تلاحقها الكاميرات لتظهر تعبير وجهها .. الحق أن الغيرة شعور معقد ليس كله حبًا لرجلها .. الجزء الأكبر منه حب لنفسها هى ، فهى لا تبغى أن تظهر بمظهر الحمقاء أو الكمّ المهمل .. ثمة جزء لا بأس به من الكبرياء وجزء من الشعور بالتملك .. هى لم تكن تحب (هودينى) إلى هذا الحد ، لكنها بالتأكيد لم تحب ما رأته ..

وعلى الباب دنا منها ذلك الصحفى الذى لم تره من قبل يسألها عن شعورها لدى رؤية الخدعة التى قدمها (دويل) ..

فى هذه اللحظة اجتاز (هودينى) الزحام ، وجذبها من كمَها فى عصبية ..

قال الصحفى شيئًا قبل أن يدرك أن الكاميرا الخاصة به مهشمة وقد تحولت إلى شظايا على الأرض ..

جذبها (هودينى) وسط الزحام ، وهو يرسم ضحكة قاسية على شفتيه .. ضحكة مفتعلة يظهر بها أن الأمور على ما يرام ، لكن هذا أعطاها طابعًا وحشيًا لا شك فيه ..

وفى السيارة قال لها :

ـ « من جديد تتكلمين مع ذلك الصحفى (راينهارت) .. »

لم ترد أن تقول إنها لا تعرف (راينهارت) ولم تره قط قبل اليوم .. ليس هذا وقت إنكار شىء كهذا ..

قالت فى برود :

ـ « من هذه الشقراء ؟ »

قال بعناد :

ـ « ولماذا تتكلمين مع (راينهارت) ؟! »

الأمر لا يتعلق بالغيرة ، لكنه يتعلق بمخالفة أوامره التى لا ترد ..

قالت وقد تعالى مستوى الأدرينالين فى دمها إلى مستوى النوبات القلبية :

ـ « ما دمت لا تحترم مشاعرى فلا توجه أسئلة .. »

قال فى برود :

ـ « الشقراء جزء من عملى .. »

- « يا سلام ! يا له من عمل جميل ! الصحفى جزء من عملى كذلك .. »

قال ضاغطًا على كلماته :

- « اسمعى .. لقد تعبت كثيرًا كى أخلق أمام الإعلام صورة (هودينى) العظيم الساحر الذى لا يفشل .. لن أشوّه هذه الصورة بخيانة زوجية أو طلاق .. ولئن تمسكت بك فلأن الطلاق لا يناسب صورتى الاجتماعية .. »

قالت فى عناد ، وقد شعرت بأنه تجاوز الحاجز الوهمى الذى كانت تضعه :

- « ليكن .. أما أنا فلا تضايقنى صورتى الإعلامية .. فليسقط المعبد على الرءوس .. »

هنا تدخل مدير أعماله الجالس فى المقعد الأمامي :

- « (هارى) .. أرجو أن تصمت ولنتكلم فى هذه الأمور فيما بعد .. »

كانت تعرف سر هذا الحماس المخلص .. إنه يقاتل من أجل الـ 10٪ المقدسة التى ينالها عن عروض (هودينى) ، وهى نسبة تستدعى أن يقاتل ويصلح ذات البين بينهما ..

صمت (هودينى) وعرفت (عبير) أنه سيجتمع مع مدير أعماله لساعات هذه الليلة . طبعًا سيقتنع بأن يهدّئ الأمور .. (العرض يجب أن يستمر) .. هذا هو الشعار وعلى الخلافات الزوجية والمشاكل النفسية أن تتوارى ..

كانت هى أيضًا تفكر فى أن تترك الأمور تسير كما هى .. إن هى إلا أيام وتفارق هذه التجربة ، فلا داعى للمشاكل .. إنها هنا كى تراقب (هودينى) فلا داعى لتضييع الوقت فى خلافات لا علاقة لها بالأمر .. فقط هى متأكدة من أنها على حق هذه المرة على الأقل .. هو يعبث مستغلاً شهرته ونجاحه ، بينما هى لا تعرف أصلاً من هو (راينهارت) هذا ..

* * *

إلى أن بزغ الفجر اجتمع (هودينى) ومدير أعماله فى مناقشة مطولة جدًا .. لم تعرف ما يقولان لأن الغرفة مغلقة ، لكن من الواضح أن هناك أشياء مهمة لأن دخان التبغ ينعقد كسحابة فى سماء الغرفة ، فلن تندهش لو انهمر المطر ..

فقط عندما دخلت وقد بدأ نور الشمس يتسلل إلى الحجرة ، وجدت أنهما جالسان وقد احمرت منهما العيون ، وكانت مطفأة التبغ مليئة عن آخرها .. كانت هناك أوراق عليها عشرات الخطوط والرسوم البيانية ..

وسمعت ما يقول المدير ..

إنه يقول :

ـ « عامة .. سوف يتم إخراجك قبل أن تختنق .. إن معنا (بلدوزر) جاهزًا .. »

قال (هودينى) :

ـ « أنبوب الأكسجين سيتيح لى عشر دقائق .. لكن يجب ألا يراه أحد من المشاهدين .. »

كادت (عبير) تجن ..

كانت تحسب أنهما مجتمعان لمناقشة الطلاق أو استرضائها ، فإذا بهما يخططان للهروب القادم .. شعور مدمر بالإهمال كاد يبكيها .. ألا تستحق أن يجتمعا من أجل مناقشة حالتها .. لا .. العمل هو العمل ..

فقط رفع (هودينى) رأسه ، وقال :

ـ « سوف ننطلق الساعة الرابعة عصرًا .. (بيس) .. أرجو أن تكونى مستعدة ! »

12ـ ماذا يحدث ؟

من جديد وقف الصحفيون ورجال الشرطة .. الجماهير تتصايح وتهلل ..

وصلت السيارة التى تقل (هودينى) الذى حرص على أن يلبس مثل (فانتوماس) هذه المرة .. العباءة السوداء والأناقة الزائدة والقناع على الوجه ، وراح يلوح للناس فى نرجسية ..

ثم وثب من السيارة فالتف حوله أربعة رجال ينزعون عنه العباءة ، وجاءت السلاسل كالعادة تلتف حول جسده الصغير .. بعد السلاسل جاء دور الكفن الذى وضعوه عليه وخاطوه بعناية .. بعدها طبقة أخرى من السلاسل .. ثم تعاون الرجال على حمله إلى التابوت .. تابوت ضخم هو متين بحق ..

وضعوه بالداخل ثم وضعوا الغطاء ، وتأكدوا من غلقه بقفل ..

هذا يشبه التجربة المائية التى قام بها من قبل ، لكنهم فى هذه المرة سوف يدفنونه على عمق خمسة أمتار تحت الأرض ويردمون عليه التراب ..

تمت الطقوس الكئيبة الرهيبة ببطء .. وفى النهاية أنزلوا التابوت مربوطًا بحبال إلى القبر ، وبدأت عملية ردم التراب فوقه .. كمية لا بأس بها من التراب .. سوف يعانى الكثير إذا أراد شق هذه الطبقة ..

جاء (البلدوزر) فسوّى التربة ، ثم رشوها بالماء ..

بعد دقيقة بدا أن (هودينى) اختفى للأبد ..

★ ★ ★

فقط (عبير) وقفت بعيدًا جوار السيارة تنظر إلى المقعد الخلفى ..

عندما ينجح كل شىء والناس يلتفون حول موضع الدفن ، سوف تدوى ضحكة مروعة وينظر الجميع بحثًا عن مصدرها ليجدوا الساحر الكبير جالسًا فى السيارة التى خرج من القبر وتسلل لها ..

الطريف أنه سيكون بكامل أناقته ..

لن يكون مغبرًا أو مرهقًا .. ولسوف يضرب الناس كفًا بكف ويصرون على أنه ليس هو ..

عندها يتم الحفر لاستخراج التابوت .. ولسوف يجد الناس أنه خالٍ تمامًا برغم أنه غير مثقوب فى أى جزء ..

هذا الهرب سيكون عنوان الصحف لمدة شهر قادم ..

هكذا وقفت (عبير) تصغى لما يقال ..

ـ « هذه المرة لن يهرب .. »

ـ « من المستحيل أن يفعل وإلا فهو الشيطان ذاته .. »

ـ « لكنه برهن من قبل على ذلك .. »

مرت الدقائق ..

(عبير) تنظر إلى مقعد السيارة .. تنظر إلى مدير الأعمال .. عشر دقائق .. اثنتا عشرة ..

لابد أن الأكسجين نفد الآن ..

هل تصرخ .. هل تتصرف بهستيريا كالعادة .. لو كانت مخطئة فالويل لها ، لكن لو لم تكن مخطئة ولم تصرخ فالويل لها أيضًا ..

نظرت من جديد للمدير فضحك لها ضحكة عصبية ، لكن العرق كان يتفصد من جبينه .. وأدركت أنها محقة فى قلقها ..

فجأة صرخ الناس ..

كانت يد (هودينى) تخرج من تحت التراب كما يفعل (الزومبى) فى أفلام الرعب .. كان يشقّ التربة بمخالبه وأظفاره فى جهد محموم .. كأنه فرخ واهن يحاول تحطيم قشرة البيضة ..

صرخ مدير الأعمال :

ـ « ساعدونى ! ساعدوه ! »

والتف الناس يزيحون طبقات التراب .. بالأظفار وبكل أداة موجودة ..

فى النهاية تكوم الرجل على الأرض وهو يعب الهواء فى جشع .. وجهه فى لون التراب .. من العسير أن تعرف أين يبدأ وأين ينتهى .. ووضعوا قناع أكسجين جاء من مكان ما على أنفه فراح صدره يعلو ويهبط ..

صاح مدير الأعمال محاولاً إنقاذ الموقف :

ـ « لقد أفلت من القيود والتابوت .. لقد نجح ! »

لكن الناس تنظر للرجل فتشعر أن هناك شيئًا خطأ .. ليس هذا هو السيناريو المفترض .. كان يجب أن يقف منتعشًا ضاحكًا لدى نجاح فقرته ..

جاءت سيارة الإسعاف فحملته مع (عبير) وانطلقت تنهب الطريق نحو المستشفى ..

جلست جواره أمسكت بيده فى مزيج من الشعور بالواجب والشفقة الحقيقية .. فنظر لها من تحت القناع ، وقال بصوت مختنق :

ـ « أسطوانة الأكسجين .. »

ـ « مالها ؟ »

ـ « كانت فارغة ! هناك من أفرغها ! هناك من أراد قتلى ! »

13 ـ الهاوية ..

كان يحتاط لكل شيء ؛ لذا احتفظ بقصبة طولها بضعة أمتار .. يثقب بها التربة إلى أن تبلغ السطح ، ثم ينتزع قطعة من المعدن فى قلبها مهمتها أن تمنع دخول الأتربة فيها .. عن طريق هذه القصبة يمكنه أن يستنشق الهواء لو حدث خلل ما يتعلق بأسطوانة الأكسجين ..

هذا هو ما حدث بالضبط .. لقد اكتشف داخل التابوت أن الأسطوانة لا تعمل ؛ لذا استعمل قدرته الخارقة على حبس الأنفاس ، وفك قيوده ومزق الكفن وفك أصفاده ، ثم أزاح الغطاء .. وسرعان ما استعمل القصبة كى يتنفس .. لكنها ليست بالطريقة المثلى .. دعك من أنه لم يستطع الوصول إلى النفق الجانبى الذى يقوده إلى الخروج من حيث لا يراه الناس ، حيث يتسلل إلى السيارة ..

هكذا تحولت العملية إلى فوضى كبيرة .. محاولات لإزاحة التربة بأظفاره .. محاولات للاحتفاظ بالقصبة فى فمه .. الحقيقة أن هذا أسوأ مأزق مر به فى حياته ..

هذا ما حكاه لـ (عبير) فى المستشفى ..

بصفتها حمقاء قالت له الكلمة الوحيدة التى ينبغى ألا تقال له :

ـ « أنت تقدمت فى السن .. ربما كان من الواجب أن تفكر فى التقاعد ! »

نظر لها نظرة أخرى نارية وآثر الصمت ..

بعد قليل أزاح القناع ، وسألها فى ضيق :

ـ « لماذا تأخرت فى إحداث الضوضاء المعتادة ... فى المرة السابقة لم أتأخر إلى هذا الحد لكنك ملأت الدنيا صراخًا .. هل كنت تنوين أن تصمتى للأبد ؟ »

قالت فى صبر :

ـ « فى المرة السابقة لمتنى كثيرًا .. لهذا خشيت أن أفسد شيئًا هذه المرة .. امنع طفلك من الصراخ عندما يرى صرصورًا ولسوف يصمت عندما يرى ثعبانًا .. »

ـ « هذا مثل غريب .. لم أسمعه من قبل .. »

ـ « ولا أنا .. السبب أننى قمت بتأليفه حالاً ! »

نظر لها وضحك .. تلك الضحكة القاسية الغريبة .. وأزاح خصلات شعره الطويل المجعد عن عينه ..

* * *

تعالوا .. تعالوا ..

تعالوا وشاهدوا (هودينى) العظيم يؤدى واحدة من أهم ألعابه ..

سوف يتحرر من قيوده هو مكبل فى سيارة بلا فرامل مندفعة إلى هاوية فى (جراند كانيون) .. سوف يغادر السيارة ويقف بينكم سليمًا يبتسم ..

إن (هودينى) العظيم بحاجة إلى أن يستعيد سمعته بعدما فشل مرتين .. بحاجة إلى أن يستعيد ثقته بنفسه .. فى الحقيقة لا شىء يمكن أن يهز ثقة (هودينى) بنفسه إلا الزلازل ، لكنه برغم هذا اهتز نوعًا ، خاصة وأنه كاد يلقى حتفه ..

تعالوا .. تعالوا .. فليعلم الحاضر الغائب ..

لقد خرج من المستشفى على الفور ، ليضع خطة الهروب الجديدة مع مدير أعماله ، ولم يستغرق الإعداد فترة طويلة .. لقد ابتكر (هودينى) أشياء كثيرة من بينها المقعد القاذف الذى استخدم فى الطائرات المقاتلة بعد هذا .. سوف يتحرر من قيوده داخل السيارة ثم يعالج رافعة فيطير بمقعده فى الهواء لحظة سقوط السيارة من فوق المنحدر ..

بعدها سوف يعتمد على قدراته البهلوانية ليتعلق بحبل يتدلى على الحافة ، ويدور ليسلك ممرًا سريًا يقوده إلى زحام الواقفين يراقبون المشهد .. سوف يقف بينهم ويصرخ : أنا (هودينى) العظيم .. أنا الذى حسبتم أنه فشل من قبل ..

العملية خطيرة وسوف تحتاج إلى أكبر توفيق ممكن ..

التحرر من قيودك فى سيارة مسرعة تنحدر إلى هاوية أمر لا يقدر عليه سوى (عادل إمام) فى فيلم (النمر والأنثى) .. (عادل إمام) كان تحت تأثير المخدرات كذلك ، وكان معه فى السيارة طفل وامرأة ، لكنه فك قيوده ووثب من السيارة مع الاثنين ولم يُخدش أحد .. كل هذا فى ثوان معدودات .. لكن لا تنسوا أن قدرات السينما المصرية تفوق قدرات (هودينى) بمراحل ..

برغم هذا .. تعالوا تعالوا ..

صدقونى سوف تحبون ما ترون ..

سوف تحكون عنه لأحفادكم جوار المدفأة ليلاً .. ولسوف تقولون فى فخر : نحن رأينا (هودينى) ولم نقرأ عنه كما فعل أفراد هذا الجيل المسكين .. (ديفيد كوبرفيلد) .. من يضمن أى

شىء فى عصر الخدع التلفزيونية والمؤثرات الخاصة .. أما فى عصر (هودينى) فقد كان كل شىء حقيقيًا له لون ورائحة وطعم ..

تعالوا .. تعالوا ..

هو ذا الساحر العظيم يتقدم .. يقوم الرجال بتقييده بعناية وهو يضحك ويغمز بعينيه .. يضعونه فى المقعد ويقيدون قدميه بالأصفاد إلى عصا التحكم فى السرعات بحيث لا يقدر على ترك السيارة ..

إنهم يحكمون تكبيله على حين يتقدم ميكانيكى سيارات ليتأكد من أن الفرامل تالفة .. يرفع إبهامه لأعلى بمعنى أن كل شىء تمام (أو تالف) ...

يضعون ثقلاً على دواسة البنزين ، ثم يحركون ذراع السرعات ويرفعون الثقل الذى كان يضغط على دواسة الدبرياج .. تنطلق السيارة كالسهم حاملة فريستها ..

هناك منحدر والمنحدر يقود إلى هاوية ..

السرعة عالية جدًا .. السيارة مندفعة بجنون ..

نهاية المطاف .. نهاية الشوط ..

تطير فى الهواء بضعة أمتار كما يحدث فى أفلام الرسوم المتحركة ، ثم تهوى من حالق .. ولا يرى أحد ما حدث لكنهم يرون الدخان الأسود يتصاعد من الهاوية ..

يركض الجميع إلى الحافة ..

أين (هودينى) ؟

يتلفتون حولهم . أين ذهب الرجل البارع ؟

(عبير) بدأت تفقد أعصابها .. ترتجف بلا توقف ..

منظرها يوحى بأن كارثة قد حدثت .. أم هذا جزء من الدور التمثيلى ؟

لماذا لم يظهر حتى اللحظة ؟

أين هو ؟

* * *

فجأة يصرخ أحد الواقفين أنه يراه ..

التفَّ الناس حول حافة الهاوية ينظرون ..

كان (هودينى) هناك متعلقًا بالصخور وهو ينزف .. ثيابه ممزقة ووجهه دامٍ لكنه حى كما هو واضح .. ومن الواضح

كذلك أنه كان على وشك الموت .. هذا مؤكد .. لو كانت خطته تتضمن الوثب من السيارة فمن المستحيل أن يكون قد رتب عمل هذا على بعد خمسة أمتار من الأرض ..

ثمة خطأ حدث ، وقد استطاع أن يصححه فى آخر لحظة ..

وبينما راح فريق الإنقاذ يحاول الوصول إلى الرجل المعلق بين الصخور تساءلت (عبير) عما حدث ..

قال مدير الأعمال المذهول :

ـ « المقعد القاذف لم يعمل .. هذا واضح لأن سقف السيارة المحترقة غير مفتوح .. هكذا فتح الباب وقذف نفسه .. هذا هو الارتجال الحق .. »

ثم حكَ رأسه ، وقال :

ـ « لقد نجا (هودينى) كإنسان .. لكنى أتساءل عما إذا كان هذا إعلان وفاته كخبير هروب ؟ »

حقًا لم تكن تملك إجابة ..

لماذا يحدث هذا الآن ؟

14 ـ ما رأيك يا سير (آرثر) ؟

قال (هودينى) وضوء لهب المدفأة يتوهج على ملامحه :

ـ « سأحكى لكما القصة .. وإننى لأتوقع ردك يا سير (آرثر) باعتبارك صانع (شيرلوك هولمز) الذى لم تكن تفوته فائتة .. »

راح الدخان يتصاعد كثيفًا من سيجار (كونان دويل) علامة على اهتمامه ، بينما اعتصرت (عبير) قدح الشاى فى عصبية ..

قال (هودينى) :

ـ « فى المرة الأولى تبدل المفتاح الذى يفتح القيود .. وكدت ألقى حتفى فى زنزانة التعذيب الصينية لولا أن أنقذتنى (بيس) .. مَنْ بدل المفتاح ؟ لا أدرى .. بعد هذا حدث موقف غريب عندما كنت مدفونًا فى ذلك التابوت تحت الأرض .. لقد وجدت أسطوانة الأكسجين فارغة برغم أننى فحصتها بنفسى قبل العرض .. لا يمكن أن تفرغ بهذه السرعة .. هكذا وجدت نفسى مدفونًا تحت الأرض ولا يوجد هواء فى التابوت .. كان علىّ أن أتصرف بسرعة وإلا هلكت فعلاً ، ومن حسن الحظ أننى ممن لا يتجمد عقلهم وقت الخطر .. لقد استعملت القصبة الهوائية التى أدخرها لظروف كهذه .. »

ثم شرب جرعة كبيرة من كأس المارتينى الذى فى يده ، وقال :

ـ « بعد هذا كنت فى سيارة مندفعة إلى حافة هاوية .. أجذب رافعة المقعد القاذف فلا يحدث شىء .. لم يقذفنى المقعد فى اللحظة المناسبة ، وسرعان ما كان علىّ أن أتصرف بينما السيارة تهوى فى الوادى .. فتحت الباب الجانبى وقفزت منه موقنًا بالهلاك ، لكنى فضلت الموت فوق الصخور على الموت حرقًا .. بفضل الله تمسكت ثيابى بصخور بارزة وبقيت معلقًا حيث أنا إلى أن جاءت النجدة .. »

ثم نظر إلى (دويل) ، وقال :

ـ « لو أن هذا الموقف واجه مفتشك العظيم (هولمز) فكيف كان سيفكر ؟ »

أطلق (دويل) سحابة كثيفة من الدخان ، وقال :

ـ « لو اعتبرنا أننى صرت (هولمز) ، فبالطبع كنت سأتأكد أولاً من أنك لم ترتكب خطأ ثلاثيًا .. »

ضحك (هودينى) فى عصبية .. وبالطبع طوّح الكأس التى يحملها فى المدفأة لتتهشم .. لابد من تصرف كهذا مع نوبات الضحك الهستيرى .. أى ممثل يعرف هذا ..

ثم قال فى غضب مكبوت :

ـ « خطأ .. لا .. لا تقل ما يقوله مدير أعمالى الأحمق .. أنا لا أشيخ أبدًا .. »

عاد (دويل) يقول :

ـ « احتمال آخر هو أن هناك من يريد قتلك .. »

صاح (هودينى) فى حماس :

ـ « هذا هو أجمل ما فى القصة كلها .. من برأيك يرغب فى قتلى ؟ »

ـ « أنت أدرى بهذا .. لكن لابد من خصم قادر على أن يصل إلى المفتاح وأسطوانة الأكسجين وفرامل السيارة .. »

نهض (هودينى) بادى الاستمتاع ، وقال :

ـ « من مثلاً ؟ »

ـ « مدير أعمالك .. ماذا عنه ؟ »

ـ « لو هلكت أنا لصار التعِس متسولاً ، ولراح يمسح الأحذية على أرصفة الميناء .. صدقنى .. هو آخر شخص يمكن أن تكون له مصلحة فى موتى .. »

عاد سير (دويل) يفكر .. ثم قال :

ـ « هناك (بيس) .. لكن هذا غير معقول طبعًا .. »

صاح (هودينى) الذى لعبت الخمر بعقله :

ـ « ولِمَ لا .. أعطنى سببًا واحدًا يمنع ذلك .. »

صاحت (عبير) وقد فهمت إلام تفضى هذه اللعبة :

ـ « لا شك أنك جننت ! »

ـ « ربما جننت لكنى لم أفقد منطقى .. هناك واحد يمكنه أن يؤذينى ويرغب فى ذلك .. السيدة المحترمة (بيس) تريد أن تتخلص منى ليصفو لها الجو مع ذلك الوغد (راينهارت) .. سوف تنال إرثًا رائعًا من الأحمق الذى احترق فى السيارة ! »

صاحت بأعلى صوتها :

ـ « أنت مجنون فعلاً ، وقد صارت الحياة معك مستحيلة ! لقد حانت اللحظة التى طالما حاولت أن أؤخرها ! »

قال (دويل) مرتبكًا ، وهو الذى لم يتوقع قط أن تكون الأمور بهذا السوء :

ـ « (هـارى) .. أنت توجه اتهامات قاسية ومهينة للغاية ولا يمكن التراجع عنها أبدًا ! »

ـ « ومن قال إننى أريد التراجع ! »

ـ « (بيس) تحبك فعلاً .. »

ـ « هذا ما تقوله أنت .. »

ـ « (بيس) أنقذتك فى تجربة الزنزانة الصينية .. كان بوسعها أن تتركك تموت غرقًا فتستريح .. »

ـ « لكنها لم تفتح فمها وأنا مدفون فى التابوت .. أعتقد أن أعصابها خانتها فاضطرت إلى إنقاذى فى المرة الأولى .. لا شك أن (راينهارت) لامها كثيرًا على لحظة الضعف هذه .. »

وقف (دويل) فى منتصف الغرفة ، وقال وهو يضع يديه فى جيبى سراويله :

ـ « اسمع .. هناك احتمال أراه معقولاً جدًا .. »

ـ « وما هو ؟ »

ـ « الأرواح ! »

صاح (هودينى) فى استهجان ، لكن (دويل) عاد يقول :

ـ « فكّر فى الأمر جيدًا .. أنت سخرت من الأرواح وأهنتها .. سخرت من كل جلسة تحضير أرواح فى أرجاء البلاد والعالم .. إن الأرواح تعرف كيف تنتقم .. وليس أسهل عليها من استبدال مفتاح أو إفراغ أسطوانة أكسجين .. »

ـ « أنت تعرف أننى لا أصدق حرفًا من هذا الهراء .. »

ـ « وأنا لا أصدق أن (بيس) قادرة على إيذاء ذبابة فضلاً عن زوجها .. أريد أن تعتذر لها .. »

فى هذه اللحظة انفجرت (عبير):

ـ « دعه يا سير (آرثر) .. لم يعد اعتذاره يهمنى فى كل شىء لأن (هودينى) كله لم يعد يهمنى فى شىء .. »

ثم هزت رأسها للرجل العجوز فى وقار، وقالت:

ـ « سير (آرثر) .. أستميحك عذرًا .. »

وسرعان ما غادرت الغرفة .. فالجناح .. فالفندق كله ..

15 ـ الهروب الأخير ..

لهذا لم تكن (عبير) هناك عندما حدثت المأساة فى مونتريال بعد أيام ..

* * *

تأمل المفتش (سكوت) من شرطة مونتريال الفتى المذعور الجالس أمامه، وبلل طرف القلم بلسانه قبل أن يبدأ الكتابة ..

ـ « أنت حضرت القصة كلها .. هلا ذكرت لى بياناتك بدقة ؟ »

قال الفتى الذى لم يعتد هذه المواقف:

ـ « أنا (جاك برايس) .. طالب بجامعة (ماكجيل) .. لقد حضرنا عرض (هودينى) وانبهرنا بشدة .. هكذا ذهبنا إليه فى الكواليس لنهنئه .. هناك كان راقدًا على أريكة بينما أحد طلبة الفنون يرسم لوحة له .. كان معى (جوردون وايتهيد) .. لقد ظللنا واقفين أمام الرجل محبوسى الأنفاس لا نصدق أننا فى حضرته، ومن الواضح أنه كان منتشيًا بهذا الشعور .. إن (وايتهيد) أحمق ويتصرف من قبل أن يفكر .. سأله عما يقال عن قوة عضلات بطنه فأكد (هودينى) هذا .. سأله (وايتهيد)

عن صحة ما يقال عن إنه قادر على تحمل أية ضربة توجه لبطنه عن طريق انقباض عضلاتها .. قال (هودينى) إن الأمر كذلك .. »

ـ « وماذا فعل (وايتهيد) ؟ »

ـ « الأحمق .. قبل أن يعطى أى إنذار أو يقول أية كلمة وجه بأقصى قوته بضع ضربات عنيفة إلى بطن (هودينى) الراقد على الأريكة ! تأوه الرجل ولم يبد على ما يرام .. لكنه تماسك وعاد إلى الابتسام وقال لـ (وايتهيد) : لو أنك أنذرتنى لتلقيت الضربات بشكل أفضل .. »

ـ « وهذا كل شىء ؟ »

ـ « هذا كل شىء .. لم يحدث شىء جديد ، وقد بقينا مع (هودينى) نصف ساعة وانصرفنا فى أفضل حال .. »

ـ « ومتى سمعت الخبر ؟ »

ـ « من الصحف .. عرفت أن أعراض الالتهاب البريتونى أصابت (هودينى) فى الصباح مباشرة .. أعتقد أن (وايتهيد) فجر أحشاء الرجل .. يقال إنها الزائدة الدودية التى انفجرت .. المهم أنه دخل المستشفى فور عودته إلى نيويورك .. ومات مساء يوم 31 أكتوبر .. »

ـ « هل تتهم (وايتهيد) بقتل (هودينى) ؟ »

ـ « أتهم الحماقة والغباء والتطرف والتسرع بذلك .. »

وارتجفت شفتاه بعد هذا الاعتراف المضنى ..

قال المفتش ، وهو يغلق الدفتر :

ـ « سوف آخذ شهادة (وايتهيد) حول الحادث .. على كل حال لن يزيد ما يوجه له على تهمة القتل الخطأ .. »

ـ « لو كانت هناك تهمة بالغباء فإننى أتهمه بها .. »

ـ « سيجد القاضى تهمة تصلح .. »

* * *

هكذا مات (هودينى) عام 1931 ..

ولما كانت (عبير) ما زالت زوجته فإنها اضطرت إلى أن تكون هناك ..

برغمها لم تستطع أن تنسى أن هذا الجسد الراقد فى التابوت هو ذلك الرجل الملىء بالحيوية الذى استطاع أن يبهر جيلاً كاملاً .. هناك أشخاص لا تتصور أنهم قابلون للموت ، لكن هذه هى الحقيقة الأليمة ..

وبرغمها كذلك نظرت حولها وهى تقف أمام الجسد المسجى بانتظار أن يظهر المرشد الوغد .. إنه يأتى دومًا فى هذه اللحظة بالذات ..

لكنه لم يفعل .. من الواضح أن القصة لم تنته بعد ..

ارتدت الأسود .. على ما تذكر هى لم تلبس الأسود فى فانتازيا من قبل ، فلم يتركها المرشد تنعى الموتى قط ..

وخرجت إلى الجنازة ..

كانت جنازة مهيبة حضرها ألفا شخص .. لقد أحبت نيويورك (هودينى) بحق .. المهاجر المجرى الفقير الذى استطاع أن يحرك أحلام الآلاف ..

لكن أغرب من حضر الجنازة كانوا أولئك السحرة الذين رأتهم فى الحفل .. سحرة الولايات المتحدة جميعًا جاءوا لجنازة (هودينى) .. وعلى قبره قاموا بتحطيم عصيهم السحرية .. هذا التقليد الذى ما زال متبعًا حتى اليوم كل عام ويسمونه (Broken wand) ..

كانت هناك خطب كثيرة ، وبكت فتيات كثيرات ..

ووسط الزحام رأت القامة الفارعة لسير (آرثر كونان دويل) ..

كان يبكى بحرقة وألم .. قلبه الطيب الساذج يسيطر على كل أفعاله .. وقد عزّاها ثم انفجر فى البكاء . فأدركت أنه يتذكر ابنه أولاً قبل كل شىء ..

ربما يتذكر مصيره القريب كذلك ؟

انفرد بها قرب المقبرة ، وقال لها همسًا :

ـ « أما زلت تشكين فى الأمر ؟ »

ـ « أى أمر ؟ »

ـ « هذه الميتة الغريبة التى لم يتصورها أحد .. وقد هلك فى ليلة (الهالوين) بالذات ، فلماذا اختار هذه الليلة دون سواها ؟ »

ـ « هى صدفة .. »

ـ « كل شىء لديكم صدفة .. الكون ذاته صدفة .. أما أنا فأرى أن لكل شىء هدفًا معلومًا محددًا .. وأؤمن أن الأرواح انتقمت من (هودينى) لأنه فعل كل ما يستطيع كى يسخر منها .. »

كادت تعلّق ثم آثرت الصمت .. أما هو فمد يده فى جيبه وأخرج رسالة ..

رفعت حاجبيها متسائلة ، فقال :

ـ « هذه رسالة كتبها لك وأبقاها معى .. يقول إن عليك أن تجربى استحضار روحه كل عام فى موعد وفاته .. هناك شفرة معينة المفترض أنه سيحاول استخدامها معك .. »

ـ « لكنه لم يؤمن بحرف من هذا قط .. »

ـ « لكنه أراد أن يتأكد .. هذه وصيته ويجب أن تنفذيها .. »

هزت رأسها ودست الخطاب فى حقيبتها .. كأن هذا ينقصها ..

أردف (دويل) باسمًا :

ـ « وأراهنك أن سيد الهرب لن يظل فى قبره طويلاً .. سوف يفر فراره الأخير ! أنا متأكد من هذا .. »

نظرتْ له فى رعب ولم تعلق ..

وسط الزحام برز صحفى شاب وسيم (هذا الوجه يبدو مألوفًا) وناداها :

ـ « آسف لما حدث لزوجك يا مسز (هودينى) .. كنت أبغى أن أجرى حوارًا معك .. »

ثم رفع قبعته ، وقال :

ـ « أنا أدعى (راينهارت) !! »

نظرت له فى غلٍّ واشمئزاز ، وهتفت :

ـ « إذن أنت هو ! فلتغرب عن وجهى وإلا جعلتك تلحق بزوجى الآن ! »

* * *

لا جديد تحت الشمس كما قلنا ..

حتى بعد موت (هودينى) ، ظل (دويل) يحاول إثبات أن (هودينى) كان يملك قوى خارقة ، وأنه كان يحول جسده إلى صورة غير مادية تسمح له بالمرور عبر الجدران ، وكتب عنه فصلاً كاملاً فى كتابه (حافة المجهول).

وجاء اليوم الذى كانت فيه (عبير) تحزم حقائبها لترك الفندق الذى أقامت فيه ردحًا من الزمن مع (هودينى) زوجها .. كانت تفتش فى خزانة ثيابها عن شىء عندما سقطت علبة مساحيق على الأرض فانفتحت .. وتبعثر ما فيها على الأرض ..

رأت شيئين عرفتهما بسهولة ولم تعرف الشىء الثالث ..

الشىء الأول : كان مفتاحًا صغيرًا .. مفتاحًا يمكن أن يكون لقيد رسغ أو قدم .. الشىء الثانى : كان صمام أسطوانة غاز .. أما

الشئ الثالث فلم تدر ما هو .. إنه يشبه دائرة القطع الكهربى فى السيارة التى يطلق عليها (مرسى) الكهربائى اسم (كتاوت) ..

والآن على ضوء الشيئين تعرف كنه الشيء الثالث وترتجف ..

مفتاح القيد الذى تبدل .. صمام أسطوانة الأكسجين الذى تم انتزاعه ففرغت الأسطوانة .. إذن الشيء الثالث جزء مهم من نظام قذف المقعد ..

من فعل هذا ؟

من جاء بهذه الأشياء هنا ؟

لا أحد يفتح هذه الخزانة سواها .. ولا أحد يقدر على التسلل هنا ..

معنى هذا شيء واحد ، هو أنها من فعل ذلك ..

كيف فعلتها ؟! لماذا فعلتها ؟!

لقد كانت غائبة عن الوعى تتصرف كمن يمشى أثناء النوم .. قررت الانتقام من (هودينى) وكان هذا التدبير المريع القاسى .. والأسوأ أنها لم تعرف قط أنها فعلت ذلك ..

حمدًا لله أنه لم يمت بسبب هذه الألعاب .. يصعب أن تتصور أنها اتفقت مع ذلك الأحمق الذى ضربه فى أمعائه فمزقها ..

إن (هى) كانت تمقته أكثر مما تعرف عن نفسها ..

إذن هى ارتكبت أول جريمة قتل لها فى فانتازيا وفى حياتها عامة .. صحيح أنها لم تسفر عن شيء ، لكن فى القتل تقترب النية من الفعل ..

ثم تذكرت (كونان دويل) وشاربه الكث يهتز فى حماس وهو يقول :

ـ « إنها الأرواح ! »

هل استخدمتها الأرواح كوسيلة .. هل هى وسيطة ولا تعرف هذا عن نفسها ؟!

أسئلة محيرة لا حد لها ..

فقط هى خائفة .. مذعورة .. وأسوأ أنواع الرعب هو رعبنا من ذلك الجانب الذى لا نعرف عنه أى شيء فى ذواتنا ..

ومن جديد تذكرت كلمات (كونان دويل) :

ـ « أراهنك أن سيد الهرب لن يظل فى قبره طويلاً .. سوف يفر فراره الأخير ! أنا متأكد من هذا .. »

ماذا لو فرّ (هودينى) من قبره فعلاً ...

ماذا لو كان هذا ممكنًا ؟

وإلى أى مكان سيتجه فور فراره ... مَنْ أول شخص سينتقم منه ؟

الإجابة معروفة ولا تحتاج إلى عبقرية ..

شعر رأسها يتصلب ودقات قلبها تتسارع ..

هناك من يتحرك فى الغرفة خلفها ..

هناك من يدنو منها ..

إنها موشكة على الصراخ .. لكن منذ متى يخيف الصراخ الموتى العائدين لينتقموا ؟

إنها ..

ـ « لا اااا ! »

* * *

وعندما شعرت بيد المرشد على كتفها أوشك قلبها على التوقف ، ثم استحال خوفها غضبًا كما هى العادة .. الخوف هو أقرب طاقة نفسية قابلة للتحول إلى غضب مجنون .. لذا انهالت عليه لكمًا وركلاً وهو يتراجع مذعورًا ..

فى النهاية قال لها :

ـ « أنا فى حال نفسية سيئة ، وجئت لأخلصك من هذا كله فإذا بى أتلقى الصفعات ! »

قالت وقد هدأت قليلاً :

ـ « حالتى النفسية أسوأ .. أنا مذعورة عاجزة عن الفهم .. »

قال فى هدوء :

ـ « موضوع القبر الخالى شهير جدًا .. كل مختصى الهرب يرتبون شيئًا كهذا .. هو نوع من الهروب الأخير يُبقى سيرتهم خالدة .. غالبًا ما يتم الاتفاق مع مدير أعمالهم على أن ينبش الجثة ويدفنها فى مكان آخر ، ثم يطالب بنبش القبر الأصلى .. هنا يجد الناس القبر خاليًا ويتكلمون عن الهروب الأخير لسيد الهروب .. »

ـ « هل فعل (هودينى) هذا ؟ »

ـ « لا .. وعلى قدر علمى لن ينبش أحدهم قبره بعد هذه السنوات .. »

ـ « وموضوع المحاولات الفاشلة والمفتاح .. إلخ ! »

ـ « فانتازيا تخلط الواقع بالخيال كثيرًا .. إن علاقة (هوديني) بـ (كونان دويل) حقيقية .. لكن هناك قدرًا لا بأس به من الخيال في موضوع المحاولات الفاشلة، والزوجة التي تتصرف في غير وعي وكل هذا .. »

ثم ناولها ذراعه، وقال :

ـ « فلنأمل عندما تعودين للواقع أن يكون الجهاز قد تم إصلاحه .. وإلا فلربما لن نلتقي ثانية .. »

★ ★ ★

وكانت هناك قصة أخرى لحسن حظ (عبير) .. لكن .. ماذا أستطيع أن أقوله عنها .. للأسف لا يوجد ما يقال .. إنها لغز حقيقي تخوضه (عبير) عاجزة عن فهم أي شيء ..

(تمت بحمد الله)

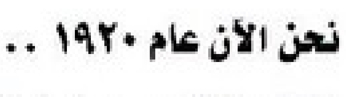


مغامرات ممتعة
من أرض الخيال





د. أحمد خالد توفيق

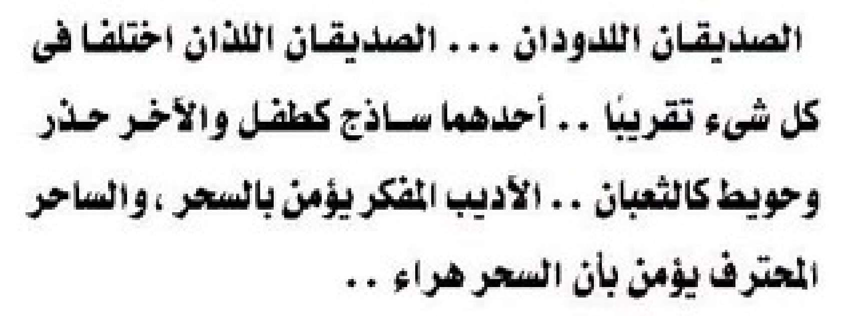


نحن الآن عام ١٩٢٠ ..

المشعوذ الشهير يواصل انتصاراته ويهدم أسطورة تحضير الأرواح ، بينما يجوب الأديب الشهير البلدان يؤكد للناس أن الأرواح حولنا فى كل لحظة ، وأن هناك أناسًا حباهم الله القدرة على الاتصال بها ..

الصديقان اللدودان ... الصديقان اللذان اختلفا فى كل شىء تقريبًا .. أحدهما ساذج كطفل والآخر حذر وحويط كالثعبان .. الأديب المفكر يؤمن بالسحر ، والساحر المحترف يؤمن بأن السحر هراء ..

و (عبير) تقابل الاثنين معًا فى هذه القصة الغريبة ..



العدد القادم

اللغـــز

